المقتطف

الجزء الخامس من المجلد العاشر بعد المئة

١ مايو سنة ١٩٤٧ — ١٦ جمادى الثاني سنة ١٣٦٦

وطننا الشرق

الساكت على الحق شيطان أخرس . صدق رسول الله .

وأشد ما يكون السكوت على الحق خطراً على مستقبل الأمم ، أن يروج زعماؤها بقولهم بأنها في سبيل النجاح وهي في الواقع في سبيل الانحلال والضعف .

خطأ أن تقاس عظمة الأمم بعدد الأفراد أو بالثروة أو بالأبنية والمعائر ، إذا كانت نفوس الأفراد خراباً ، إلا من أوهام العظمة ، وخيالات القوة والقسوة ، وفتنة المظاهر المرئية ، ومن وراء جميع هذه المظاهر انحلال يشمل جميع المرافق ، وبخاصة إنحلال في العقلية وإنحلال في الفكر ، وإنحلال في الأخلاق .

حفنة من المقدونيين فتحوا العالم ، ودوّخوا الشرق برمّته في زمان الإسكندر المقدوني . ودوّخ هانيبال رومية العظمى بجيش خليط من القراطجة والغال والنوميديين وأهل إسبانيا ، وكاد يقضي على مجد الدولة الرومانية . وبضعة آلاف من العرب فتحوا الدنيا من نهر السند الى بحر الظلمات . وفي العصر الحديث حكمت بريطانيا خمس العالم ، والإنجليز لا يتجاوزون الأربعين مليوناً من الأنفس .

آية ذلك كله أن نفوساً عامرة تستعبد نفوساً خربة ، وأن أخلاقاً متماسكة تستقوى على أخلاق منحلة ، وعقولاً تفكر تخضع عقولاً جامدة ، وأذكار أمثالية تستولي على الأرضيات .

وعض الشرقيين في هذا الدور الذي هو في أوائل دور انقلاب حقيقي ، إنما تتطور الى الأصلح ، وإننا نقتدي بالمثل ونتقع بالمثلات ، في حين أن العالم يجرنا وراءه جرًّا ويشدنا الى عجلته شدًّا ، كأننا الصخور لا نتحرك إلاَّ بالدفع القوي الشديد ، وكأننا المرتى يتقلبهم الاحياء ، أو الدمى تتلاعب بها الايدي ، أو الكرات تتدافعها سواعد الفرسان ، أو علامات صُمٌّ تحركها أيدي اللاعبين على رقعة الشطرنج .

ما أردت بهذا تسفيهاً ، ولا أردت به تثبيطاً للهمم ولا قتلاً للحوافز . وإنما أريد به أن أرفع عن الحقائق غبار الباطل ، وأن أفتح العيون على الوقائع كما هي كائنة ، لا كما تصورها لنا الأوهام . وفي هذا وحده مجال الحياة الأدبية وقوة الشعوب : إن أرادت الحياة واجهت الحق ومضت الى الحقيقة ، فقويت من قواها وحشدت من كامن عنفوانها ما تستقوي به على أسباب الضعف .

هذه فلسطين تأكلها الصهيونية ، وتنهر على قتلها قوى اليهودية في أنحاء العالم ، ونحن نسبح في أحلام . يقول المسلمون منَّا أن أمة محمد بخير . ويقول النصارى إنَّ الأمر لله . نعم أن أمة محمد بخير ما دامت تأكل وتشرب ، وإن أكلت التراب وشربت الكدر . ونعم مرة أخرى أن الأمر لله ، ولكن أمر الله في هذه الدنيا مع الأقوياء ، لا مع المستذلين الخوارين ، الذين تنفجر في حضورهم قنابل الصهيونية ، وهم على صلواتهم عاكفون ، كأنما هذه الدنيا صلاة وصوم وزكاة ولا شيء غير هذا . وما كان الدين إلاَّ سبيلاً للقوة ، وما كانت العقيدة إلاَّ أداة الحرية والاستقلال والتنعم بمنالبات الحياة .

وهذا شمال أفريقية تدس بريطانيا في شرقيه أسمها المسمومة ، وتضحك فرنسا على خدون أهل الجزائر وتونس ومراكش ، وتعمل على تفرقة هؤلاء العرب ، والعالم العربي كله واقف ينظر كأن هذه الدنيا لا تحفه به ، وكأن أهل هذه البلاد من المريخ أو من زحل .

قطعت فرنسا بين أهل شمال أفريقية وبين العالم العربي كل صلة . فلا تدخل هنالك مجلة أو كتاب أو صحيفة إلاَّ مهرَّبة ، كأن العقل العربي في غير تلك البلاد لا يُنتج الا سموماً تخشى فرنسا أن تسمم أهل المغرب الأقصى حنقوًا منها وعطفاً وإشفاقاً . ويدخل مصر ، قلب العالم العربي ، ثمانين صحيفة فرنسية كلها سمٌّ زعاف ، وكل دعايات سياسية وغير سياسية

وكلها فجور وإثم ، وإثارة للشهوات الخسيسة ، ونحن واقفون ننظر كأن الأمر لا يعنينا في شيء .

* * *

وفي مصر ، ومنها يتطرق الأثر إلى العالم العربي ، صحافة تمثل مناطق النفوذ الدولي في هذه البلاد ، ونمت في غيرها من أرجاء الشرق ، فهذه صحافة للدعاية الأمريكية ترمينا بكل جائحة نكراء ، وداهية لبلاء ، من غثائات ما يلقي به الغرب في سلة المهملات ، فيصيب من أخلاقنا انحلالاً ، ومن جيوبنا ثروات ، وتلك صحف أخرى تروّج لفرنسا الغائحة الآثمة المشؤمة على شرف العرب وجزية العرب ، تلك الدولة التي تحاول فرنسة شمال أفريقية وقتل العربية والاسلام في نفوس ناشئتها وجعلها ولايات فرنسية تمثل في برلمان فرنسا ، وتدين بأدب فرنسا ، وما تعدّ فرنسا من هذه البلاد إلا رجالاً تقودهم الى القتل في ميادين الحرب دفاعاً عن أرضها فيذهبون فدية لأبنائها ، فيراق الدم العامي الذميم ، فداءً للدم اللاتيني الكريم ، وهذه انجلترا تتغلغل بدعايتها السامة في جسم الشرق فتنصر حزباً على حزب ، وطائفة على طائفة ، وتلعب بعقول أولاء وهؤلاء ، ومن وراء ذلك كله مصالح انجلترا لا تعرف في سبيلها ذمة ولا شرفاً ولا وفاء ، وتجد منا من يقولون إنهم شرفاء ، وإنهم معقولون ، وزاد الطين بلة أن هؤلاء الشرفاء المعقولين قد رموا الشرق بكل أفاق مجرم من أهل شرق أوربا الدائنين بالصهيونية وأسكنوهم فلسطين التي هي كبد الشرق ونور عينه المبصرة ، زاعمين أن هؤلاء القتلة السفاحين مظلومين مشرّدين ، فباسم الانسانية ينصفون ، ولكن بقطعة من أرض العرب وعلى حساب العرب . على أن هؤلاء إنما ينظرون إلى شرق الأردن باعتباره فلسطين الشرقية وإلى لبنان والشام باعتبارهما فلسطين الشمالية ، وإلى بلاد العرب والعراق ومصر باعتبارها مناطق النفوذ الصهيوني ، ومع قيام كل هذه الحقائق التي تدمغ جبين أشق الناس للحق ، تحاول بريطانيا أن تثبت من أقدامهم ، وأن ترتئي لهم في فلسطين ولو جلد ضباطها وخلف أضلاعها جهرة من منصّة العدل في رائعة النهار ، ولو عجزت عن تنفيذ حكم الاعدام في مجرم قضت العدالة بأنه عضو فاسد في جسم الجماعة الانسانية ، وتقف مترددة بين أن تقدم وبين أن تحجم ، كأنما هذه الصهيونية جوّة صحيفة تكاد تبتلع من ؟ . . . تبتلع بريطانيا ؟ كلا ، وإنما هي

السياسة التقليدية ، سياسة الجور والعدوان والقوة الصارخ والأفك الموروث . سياسة شرق يأكل وغرب يأكل .

***

ليس كلامنا هذا محتاج الى دليل منطقي وقد دلت عليه الأدلة المادية تؤيّده وتدفع عنه الشبهات . هو الحق الصارخ المدوّي : والصامت على الحق شيطان أخرس .

أنظر ماذا يقول الصهيونيون [1] .

« لا نقاتل في سبيل تحقيق حصة معينة من الهجرة اليهودية ، بل نرمي الى تحقيق الهدف التاريخي الذي تتوخاه أمتنا : وهو تحرير أرضنا من الحكم الأجنبي » .

١ — أصبح هؤلاء وطن يريدون تحريره من نير الحكم الاجنبي : بالطبع حكم العرب وحكم الانجليز . هل سمعتم أيها العرب بسفاهة تفوق هذه السفاهة . أو وقاحة تبلغ هذه الوقاحة ؟ او رأيتم وحوشاً كواسر تود أن تلغ في دماء العرب ، أشد من هؤلاء افتراساً أو اسوأ أنهم لصوصية ؟

يقولون :

« إن صداقة الشعب البريطاني لأمتنا أسطورة تمزقت إرباً في هذا الجيل ولا سيما في أثناء إبادة ستة ملايين يهودي في أوربا .

٢ — الانجليز الذين عادوا العرب وقتلوا ثوارهم الحقة بكل سلاح دفاعاً عن اليهود وللصهيونيين قبيل الحرب العظمى ، الانجليز الذين لولا شلكم على حساب العرب ، واسكنوكم أرض العرب عدواناً وظلماً ، الانجليز الذين وضعوا السلاح في أيديكم لتقتلوا العرب وتغتصبوا عنوة أرض العرب ، تمزقت صداقتهم بالنسبة اليكم في هذا الجيل . لماذا ؟ لانهم لم يحولوا بين هتلر وقتل ستة ملايين يهودي . ولكن اسمعوا أيها الصهيونيون أحلافكم القدماء وأعداءكم اليوم هذه الكلمات المرة ، فانهم ولا شك يستحقون ما هو أمر منها مذاقاً .

يقولون :

« سنعمل على مواصلة النضال فيما وراء حدود فلسطين . طبيعي أن نستمر على الهجرة غير المشروعة .

---

(١) نقلت الصحف أن مراسل وكالة « اليونيتد برس » وجه الى الارهابيين في فلسطين أسئلة تلقى عنها ردوداً تتنطف منها هنا ما تلقى عليه . الاهرام ١/ ١ / ١٩٤٧

٣ — معنى هذا أيها العرب أن البحر وراءكم والعدو أمامكم ، اليهوديون يتطلعون الى ما وراء فلسطين . أم بعض يهودي في شرق الأردن يذمه ؟ ألم يخرج موسى بشعب اسرائيل من مصر ؟ أليس لليهود متجر في العراق ؟ أليس لهم صيرفي في الشام ؟ أليس لهم أملاك أو نصاب في لندن ؟ أليس لهم عالية كبيرة في اليمن ؟ أليس لهم بقية في بلاد العرب ؟ فكيف إذن لا يتطلعون الى ما وراء فلسطين .

يا أبناء العرب ذوقوا فتنتكم .

يقولون :

إذا هاجمنا العرب الذين لا نسعى الى قتالهم فسنحمي أنفسنا . وإذا شنوا هجوماً على المستعمرات اليهودية فسنرد عليهم بالحرب .

٤ — المعنى المفهوم من هذه العبارة ، على حد أسلوب الصراح ، ان العرب الضلال ، إذا هاجمونا نحن الاسلاء ، فسوف نحن نهيم ونقتلهم شر قتل ، أما الهجوم على المستعمرات اليهودية فمعناه الحرب الحرب تعلنها دولة الاقاين على أبجاد العرب أما القول بأنهم لا يسعون الى قتال العرب ، فسره خدعة عجيبة ، هي أن هناك عدواً ثالثاً هو الانجليز ، فاذا تقاتل اليهود يقاتلون من الانجليز ، فالطبيعي أن يتحولوا الى العرب ليخرجوهم من أرضهم .

يا أبناء العرب ذوقوا فتنتكم .

***

ذوقوا فتنتكم . ذوقوا مرارة الانقسام والغفلة والتهاون . ذوقوا مرارة التواكل والبغضاء والتقاطع . ذوقوا ما تنتج سخائم الأنفس وحفيظات الصدور .

من العرب الآن من يعامل يهودا ، ومنهم من يمد يده لليهود ، ومنهم من يهادن اليهود ، ومنهم من يُشجّع اليهود على السيطرة على الصحافة العربية ، قلب هذه البلاد النابض ، ولسانها القائل ، وعينها المبصرة ، ووجهها الحي .

نعم . صادقوا اليهود ليخرجوكم من أرضكم ، صادقوهم ليقتلوكم ، عاملوهم ليسرقوكم ، صاحبوهم ليضلوكم ، تقوا بهم ليفسدوكم ، قدّموا اليهم أيديكم ليلقوا بكم في جهنم .

يا أبناء العرب ذوقوا فتنتكم .

***

ولنعد بعد ذلك الى فرنسا الغاشمة ، عدوة الاسلام وعدوة المسلمين ، فننقل شهادة واحد من أهلها . قال الأستاذ جوستاف لوبون [1]

(١) حضارة العرب ص ٩٣ الترجمة العربية للاستاذ زعيتر

« ويجمع أولئك الحضريون والأعراب على مقت الأوربيين القاهرين لهم وحقدهم الشديد عليهم. ويتجلى الجزائري، الذي نصفه باطلي المتردد المكسال القانع بالوضع المتزيد، عاله ونفسه، ويفترك في كل عصيان وتمرد للخلاص من حكم الأجنبي الذي فتح بلاده، وقد تم إبادة عرب الجزائر بوسائل منظمة كالتي اتخذها الامريكيون لابادة اصحاب الجلود الحمر. ولكن الذي اعتقده هو أن الفرنسي لن يستطيع حمل الجزائري على التفرنس، وان من المتعذر أن يسود السلام في قطر واحد بين العرب والفرنسيين الذين ينتسبون الى عرقين مختلفين. وقد صحت هذا الرأي الذي يجتنب تدوينه في الكتب عادة من جميع أولي البصائر في الجزائر، وانني أوافق عليه موافقة تامة ».

تحت أقبال جوستاف لوبون ووقع فيها بامضائه، كما يقال في محاضر الشرطة.

وإذن ففي شمال أفريقية العربي المسلم معركة بين العرب وفرنسا، معركة تحاول فيها فرنسا القضاء على أهل هذه البلاد بوسائل أمريكية استخدمت في القضاء على أصحاب الجلود الحمر. أما وأن فرنسا لا تستطيع اليوم، وقد فتح العالم عينيه على مفاسدها الاستعمارية، أن تمحو العرب من شمال أفريقية، فهي تعمل على فرنستهم. وأول خطوة يخطوها مستبد أعمى في هذا السبيل هي القضاء على شيئين: اللغة والدين، وبمعنى أفصح وأظهر: العربية والاسلام.

يأبناء العرب: ذوقوا فتنتكم. ذوقوا مرارة الغفلة. ذوقوا علقم ما أمدتكم به الباطنية والتصوف والزهد وخلع رداء القوة التي هي روح الاسلام، وارتداء أثواب الضعف والمسكنة والذلة، التي هي روح الوثنية.

يأبناء العرب: لقد آثمتم لكل معنى من معاني الضعف وثناً عكفتم عليه، فطفحوا اليوم هذه الأوثان وتزقوا أغلالها وارموا في وجه كل فرنسي بحجر من أحجارها، وفي وجه كل مستعمر يحاول أن يأكلكم بقذيفة من بقاياها. فان لم تفعلوا فأنتم المأكولون، وأنتم المفرنسون وأنتم المكلزون، وأنتم المؤمركون، وأنتم الخاسرون في الدنيا وفي الآخرة.

وإنما أخراكم هي ثمرة دنياكم، والأمر بيدكم، فاذا أردتم فان ارادة الله معكم، واذا لم تريدوا فقد أتتكم آياته فنسيتموها، وكذلك اليوم تنسون ويحل عليكم عذابٌ مقيم.

يأبناء العرب : اذكروا دائماً قولة عبد الحميد طاغية الترك : إن أوربا تحاربنا حرباً دينية في قالب سياسي .

* * *

على أن فرنسا حتى بعد أن فتح العالم عينيه على مقاصدها الاستعمارية لا تزال تجري على سياسة الفرنسة في شمال أفريقية ، فأخذت تلوّح لاخواننا الشماليين باصلاحات خفة غنة ، لتصرفهم عن طلب الاستقلال وعن ثوراتها في « الفرنسة » ، وقد علمت من ثقة أن مشاريع للتعليم كفيل بأن يفرنس شمال أفريقية في ربع قرن من الزمان ؛ يوضع الآن موضع التنفيذ الى جانب محاولات ترمي الى كف العيون عن النبع الحقيقي المبين لأهل هذه الأقطار العربية الصميمة .

ولقد نقرأ هنا هيئاً من تلك الدعاية الواسعة التي تنشرها فرنسا مظهرة كذبها الكاذب على أهل تلك البلاد بعد أن أمعنت فيهم قتلاً وخطفاً وتجريحاً ، وبعد أن أنزلتهم أحط دركات الجهل والفقر والجوع ، وبعد أن نشرت في بلادهم شعور الخوف ، وأذاقتهم مرارة النقص في الأنفس والأولاد والثمرات [1] .

فقد نقلت الصحف دعاية فرنسية طويلة عريضة عن شمال أفريقية تحت عنوان « سياسة التقرب من المسلمين » ، وهي في الحقيقة الواقعة « سياسة فرنسة المسلمين في شمال أفريقية » ، وهي في مجموعها تضحك على ذقون أهل الاسلام واهل الشرق ، دعاية ظاهرها التقرب وباطنها الاستعمار، وغرس كل سيئة من سيئات الخلق الفرنسي في نفوس هؤلاء العرب، وانتلاع كل فضيلة شرقية ورثوها مع الأجيال الطوال . ولقد حدثني نائب من أهل تلك البلاد فقال : ان أصحاب المسؤولية من الفرنسيين ، وهم بالطبيعة أولئك الذين يعملون على فرنسة شمال أفريقية ، يعتقدون أن أكبر عقبة في سبيل سياستهم الاستعمارية هو « القرآن » . فانظر يرحمك الله ماذا تكون اذا صحت هذه الرواية ، وهي ولا شك صحيحة ، ان لم تكن صحتها آتية عن طريق النقل ، فإنها صحيحة من طريق الواقع .

(١) أنظر الاهرام في ٢٠ من يناير سنة ١٩٤٧ .

جاء في تلك الدعاية أن فرنسا عفت عن ستهيين جزائريين ، وانها عينت وزيراً مفوضاً مسلماً ، وعينت مستشارين مسلمين ورئيساً مسلماً لمحكمة الجزائر ، وشرعت تدرّس الحضارة الاسلامية في السوربون ، وأحدثت تنظم الضمان الاجتماعي وتنظر في مشكلة الايدي العاملة ، الى غير ذلك من الأفك الذي يخجل أن يدعيه قاطع طريق لا حكومة متمدينة في القرن العشرين .

تمن فرنسا على أهل شمال أفريقية بذلك كأنما هي تقول لهم « أيها الأقزام » : أنظروا كيف أنزل عن كبريائي وأتدنى اليكم ، فأعين منكم وزيراً مفوضاً ، وسفيراً مسلماً ، ورئيساً مسلماً لمحكمة !!!

اما اذا كان للخجل حرة ، فانها ولا شك لم تعرف وجه فرنسا .

* * *

ان مشكلة فلسطين ومشكلة شمال أفريقية هما أعضل مسائل الشرق والغرب . على أن ما في تينك المشكلتين من تعقد وجمود إنما هو راجع قطعاً الى أن أوربا تحاربنا حرباً دينية في قالب سياسي . وإلاّ فأين الحق الذي ينادي به مُهرّجو السياسة الاوربية والأمريكية ، وأين حق الأمم ، وأين تقرير المصير ، وأين حرية الشعوب الصغيرة ، وأين ضمان حقوقها ؟ أين كل هذا اذا كانت أبسط الحقوق الجلية الظاهرة تصيح بين أيدي هؤلاء مشكلات أعقد من ذنب الضب.

لقد خرج العالم من الحرب الأخيرة وقد طبقت آفاقه الدعايات صارخة بأن العدل قد محق القوة . ولكن لم يكد السلم ينشر رواقه حتى أفسنا من أصحاب العدل وأصحاب الحرية الذين هدخوا آذاننا طوال سنين بأنهم حفظة العدل والقوامين على الحرية ، إنهم انما يتبعون موحيات القوة ويتكلمون بلسان القوة ، وها هي ذي جيوشهم يلج بها الشرق وأسلحة فرنسا تروح وتغدو عبر أصيا لتقتل رجال الشعوب الصغيرة في أندونسيا والهند الصينية ومدغشقر باسم الحضارة التي تعمل على فرنسة كل شبر من أرض تطأه قدم فرنسية إذا كان المبدأ الاساسي في العدل الدولي هو ذلك المبدأ الذي قرره ميثاق الاطلنطي

إذن يكون لكل دولة من الدول الحق في أن تناضل حرة طليقة في سبيل تقرير المصير لنفسها من غير ان تتعرض لعدوان دولة او دول اخرى . وهذا المبدأ إن كان من المبادىء المقررة في القانون الدولي ، إلا انه قد ظهر قوة أكبر بأن أصبح التكرة الاساسية التي قامت عليها هيئة الامم المتحدة .

وربك ما هو العدوان ؟ هو ان تندفع دولة بالقوة لارغام دولة اخرى على الخضوع لامر لا تريده ، أو اتخاذ موقف تأباه أو يتعارض مع مصالحها . هو على الجملة تدخل بصورة من الصور في أمور دولة أخرى أو شعب يريد أن يكون ذا دولة تدخلاً تعززه القوة .

نضرب بذلك مثلاً دعوى الصهيونية في فلسطين . قال من الاشياء المسلمة في العرف الدولي أن طول العهد بامتلاك بقعة من الارض ، يوثق حق أية أمة في امتلاك البقعة التي تسكنها . وإذا كانت هذه الحجة هي حجة كل قانون دولي او غير دولي يستند اليها شعب من الشعوب في امتلاك الارض التي يسكنها ، كان حق العرب في فلسطين واضح لا يحتاج إلى تلك المؤتمرات التي لا ترمي إلا إلى انتزاع فلسطين من العرب بوثيقة يوقع فيها العرب لصالح الصهيونيين ، صنائع بريطانيا .

* * *

إذا كان ما يدعي الصهيونيون من حق في فلسطين راجع إلى وثائق تاريخية ، فان حق العرب يرجع إلى أكثر من ألف سنة ، وحق اليهود يرجع الى ذكريات كادت تعفّي عليها أحداث الزمن . وإذا كان حقهم راجع إلى وعد بلفور ، فان هذا الوعد أشنع عدوان يذكره تاريخ البشرية جميعاً .

إن واجب كل عربي واضح لا يحتاج الى بيان . واجب يحفز كل عربي الى الجهاد بكل ما أوتي من قوة ومال وجاه حتى يستقر حق العرب في فلسطين ، ويعترف الغرب أن الشرق يأبى الآن أن يؤكل كما أوكل في الايام السوالف .

اسماعيل مظهر

الحائرون

رأيتهم كما كنت أراهم قديماً ، يجلسون منفردين في شمس الشتاء أمام مقهى المعلم شيحة ، يترطنون القهوة ويدخنون الطباق في القصبات الطويلة ويسعلون ويبصقون على الأرض . وقد اطمأنت نفوسهم وخفّت حدّة الكبرياء التي كانت تملؤهم وقلّ التحدّي الذي كانت ترسله نظراتهم للناس في ازدراء واحتقار . واتجهت أبصارهم إلى تراب الأرض وكانت لا ترتضي السماء متجهاً لها .. تماماً كما كنت أراهم قديماً . ورأيته فيهم ، قد عاد منلهم ، إلى شمس الشتاء أمام المقهى يترطن القهوة ، وقد سكنت نفسه وخفّت حدّة الكبرياء التي كانت تملؤه وقلّ التحدّي الذي كانت ترسله نظراته للناس في ازدراء واحتقار واتجه بصره الى تراب الأرض . يا للأقدار ! . . إن عجلة الزمن لتدور دورانها السريع الغريب ، وإنها لتقلب الأوضاع ثم . . ثم لا تلبث أن تعيدها . . ثم تقلبها لتعيدها ثانية ! . . لقد رأيته فيهم وعرفته سريعاً ، وكنت أبغي أن أحييه ، ولكنه راغ مني ، أعني من نظراتي ، واتجه ببصره إلى .. إلى تراب الأرض . . ولكن ؟ . . أكان اتجاهه للأرض وهروبه من مواجهتي ينسيني إياه ؟ . . مطلقاً ، لقد عرفته سريعاً ، ومرّت بخاطري كل أحداث قصته ، من بدئها حتى هذه اللحظة التي رأيته فيها . . إنها ليست قديمة إلى حدّ النسيان . . إنها قريبة لم يتعد عمرها السنة الرابعة . . أجل أربعة أعوام هي كل عمر قصته على التحقيق ، فقد كان ميلادها على يدي وفمي وفي رعايتي . . إنني أذكر ذلك جيداً جيداً . . أذكر هذه الأمسية التي أتى فيها ذلك الفتى إلى منزلي يطلب مقابلتي ليخطب زكية خادمتنا الشابة ومعه أبوها . وسمعت أم زكية وهي تقول لي : يا سيدي لقد جاء في هذا الشاب يخطب زكية ، وأنا كما تعرف يا سيدي أرملة جاهلة مسكينة لا عائل لي أو لبناتي اليتيمات ، وقد قمتَ أنت يا سيدي برعاية زكية حتى نضجت في رعايتك ، وأريد منك اليوم أن تتم جميلك معها فتتولى

أمر هذا الزواج وتركته وأبيك السديد ، فإن رأيته صالحاً مناسباً ووافق رضى من نفسك فافعل . والله لا يضيع أجر إحسانك ورعايتك لهذه اليتيمة » . وحين انتهت الأم من حديثها هذا ، بدأت أسأل الفتى عن اسمه وعمله وأسرته وحالته الاجتماعية . . إنه شاب في السادسة والعشرين من عمره تقريباً ، أسمر البشرة معروق الجسد له شارب صغير وشعر طويل لا تغطيه قلنسوة أو محرها ، ويرتدي ثياب أفرنجية يبدو هندامها وحركاته هو فيها عن أنه حديث عهد بلبسها . . وحين سألته عن عمله أجاب بأنه عامل ، ولما استوضحته أي عمل يعمله فقال خرّاط ميكانيكي . قلت فهذا عمل حسن في صناعة ناجحة مرفقة ، ولكن أين تعمل أفي مصالح الحكومة أم في مصالح الجيوش المحاربة ؟ قال باستعلاء : وتحدّ في مصالح الجيش البريطاني . . وعرفت منه أن أجره في الشهر يتعدى الستة من الجنيهات ، وهذا مبلغ لا بأس به يكفي حاجة منزل معتدل لأسرة صغيرة تتكون من زوجين كسيد هذا وزكية . . ثم أتممت استيضاحاتي كلها منه ، وكانت كل إجاباته مما يطمئن تقريباً . وكانت أم الفتاة تجيب معه في معظم إجاباته . وكانت زكية تحوم حولنا متعللة بقضاء بعض الحاجات لتسترق السمع ولتطمئن على نفسها ، فكنت ألمح في عينيها لمعة الفرح والرضى . . لكنني مع كل هذا ، كنت أرى في عيني سيد هذا ، شيئاً غريباً يكاد يكون مناقضاً لما يبديه أمامي من تأدب وخشية . . أقول كنت أرى هذا الشيء الغريب في عينيه حتى بعد أن استعلمت عن عمله وبعد أن سألت عنه في موطنه القريب منا . . كنت في حالة تنبيه عدم الرضى عن هذا الخاطب رغم تأكدي من صدقه في معظم ما أجابني عنه . لست أدري لماذا ؟ ولقد كاشفت زوجتي بشعوري هذا ، فأبدت موافقتها لي في هذا التشكك . ثم . . ثم عادت هذه الزوجة الطيبة فترددت وخالفتني وأخذت تلح عليّ في قبول هذا الزواج وإنهائه وترك هذا التفاؤم والتشكك ، بعد الذي رأته من إقبال الفتاة وسرورها وبعد الذي نمي إليها من أن الفتاة تميل إلى الشاب الخاطب وأنها تبادله عاطفة وحبّا قديمين . . والذي ألان من تشددي ، ولم يبدّد من شكي شيئاً مع ذلك ، هو ميل أم الفتاة إلى إنهاء هذا الزواج ، ورضاؤها عنه . وكانت زوجتي الطيبة تقول لي : مالك مترددا متشككا ؟ فأجيبها بما في نفسي من قلق وحيرة وشك ، سببها هذا الشيء الغريب الذي كانت تنبئني به عينا الفتى ، ومن أن فتاة مسكينة

كزكية خدمتنا هذه الخدمة الطويلة من الزمن بمراعاة وإخلاص حتى صارت منا كالابنة وصرنا منها كالأهل ، لا يجب أن نتساهل في أمر تزويجها هكذا سريعاً ولأول قادم ، بل يجب أن نتروى وننتظر حتى يأتيها زوج مناسب معروف لنا أو لأمها من قديم، ونعرف أهله ونشأته وسيرته ونعرف له عملاً ثابتاً دائماً بدل العمل الموقوت في مصانع موقوتة كمصانع الجيوش المحاربة . . . وكنت أقول لها ، لزوجتي ، إن مجرد مجيء أي شاب يشتغل في صناعة معروفة ناجحة بمصانع الجيش البريطاني ومرتبه يزيد عن ستة جنيهات وإنه يسكن في عطفة رُتَبِيّة بدرب المنجفية لا يكفي مطلقاً ضماناً لقبوله زوجاً . ليخيل إليّ يا زوجتي العزيزة الطيبة أنه فتى من هؤلاء الفتيان المتسطلين الذين يصرون المقاهي البلدية ويسيرون في الطرقات يتسكعون في شمس الشتاء الدافئة أو ظل الصيف يتبادلون بذيء السباب والشتائم ويتعاوبون الضحكات الغليظة النابية ، وأنه إنما يكون رزق هذا العمل بسبب ذلك الرواج الذي سببته الحرب والذي لا يلبث أن يزول بزوال الحرب وبعدها يعود الفتى إلى رفقته وإلى تسكعه وإلى مقهاه البلدي وإلى تبادل السباب البذيء مع رفاقه . .

ولكن زوجتي هذه الطيبة القلب ظلت بي تجادلني وتحاورني وتقنعني بأنه مهما يكن من أمر ، فمن سيتزوج هذا الفتى ؟ أليست فتاة كزكية يجعلها سيدة بيت وأم أولاد ؟ أفليس هو وهي من بيئة متحدة في الفقر والجوع والشبع بل والطباع والعادات في الأغلب الأعم ؟

وكان آخر ما صنعته معي زوجتي في شأن هذه الزيجة ، أن دخلت عليّ حجرتي الخاصة ذات مساء ، وأخذتني من يدي بقوة وقادتني نحو غرفة الخدم ، وكانت زكية بداخلها وحدها ثم أوقفتني بعيداً بحيث لا ترانا زكية بينما نراها نحن ونسمعها بسهولة ، فماذا سمعت وماذا رأيت ؟ يا لعجبي ويا لدهشتي ! . . هذه زكية تبكي بحرقة ومرارة وتندب حظها السيء الذي جعلني أقف حائلاً بينها وبين أمنيتها العزيزة في الحياة والتي هي الزواج من سيد بالذات . . رأيتها بعيني وسمعتها بأذني تنتحب وترتد في ولولة حزينة مؤثرة : يا مصيبتي السوداء . . يا حظي النحس المنكود . . يا ربي ماذا صنعت من شر لسيدي حتى يحول بيني وبين راحتي وسعادتي . أجزاء إخلاصي له ولأولاده كل هذا الزمن بكون تعذيبي وتضييع حظي يا ربّ . . يا رب خذني إليك وأنه حياتي بدل هذا التعذيب والشقاء . . » وكلاماً آخر كثيراً غير ذلك

ثم تزيد فتنظم وجهها وتشد شعرها . . صمتت متجاذلاً كئيباً وصوت روحتي الطيبة يرن في أذني : أسمعت أرأيت ؟ أفبعد كل هذا لا تزال مصرًّا على انتقاء روح آخر لها أصلح من هذا الزوج ؟

* * *

وتمّ الزواج . . أعني زواج زكية من عبد أمينه . . وصرّ عام للزواج وعام . . وتبع العامين عام ثالث ثم — ثم ماذا ؟ أكان زواجاً سعيداً موفقاً كما أمّلت زكية ، وكما تمنّت أمها ، وكما كانت ترجوه زوجتي ؟ ! . . الواقع أن الزواج ظلّ سعيداً عدة أسابيع بعد الزفاف أو لعلها بضعة شهور ، ثم أدركه شيء من الملل . . أعني ملل الزوج وضيقه بحياة الاستقرار والأمن والدعة والركون إلى منزل محدود تديره فتاة عاقلة مثل زكية ، وراوده ميل وحنين إلى حياته القديمة والسهر مع رفقته القدامى الذين انتزعته منهم حياة الزوجية ، والذين أنعشهم رواج الحرب وتيسير العمل المستمر والكسب المتصل وزوال البطالة والتعطل والكساد . . فعاد إليهم ولقوه فرحين بعودته . . ومرّة أن رآهم ورأى المقهى في نشاط عجيب وانتعاش غريب ومتر لديذ ونور غامر ودفء لطيف . . إنه تغيير شامل لتحال القديمة ، فهذه الرحة وهذه الحركة وهذا السرور ، ثم هؤلاء الرفقاء قد تغيرت جلستهم وتغيرت هيئاتهم وتبدلت مشروباتهم التي لم تكن قديماً تتعدى تنكة القهوة أو قصبة الطباق الطويلة فاستبدلت تنكة القهوة بأكواب الشاي والسحلب والبندق بل وبالخمر أيضاً ، واختفت قصبة الطباق الطويلة وحلت محلها السارجيلة الأنيقة . وراعته هذه التغييرات وتلك الانقلابات ، واستهوته ، وصادفت من نفسه غراماً وهوى فأقبل على السهر واندمج مع الرفاق وجاراهم في الاتفاق والشراب والسهر وتردد معهم على دور السينما . . وهذه السينما هي الأخرى قد جدّت في حياتهم ولم تكن هواية قديمة فيهم وإنما شجعهم على ارتيادها وأغراهم بها هذا الرواج الجديد الذي سببه العمل المستمر والكسب المنتظم . . وزادوا على السينما ، لوناً آخر من ألوان المتاع هو بالضرورة لازم وعامٌّ لمن يسهر في المقهى ويشرب الخمر ويرى في دور السينما الرقص الخليع والأجساد الرخيصة العارية ، ويستمع إلى الأغاني الرقيعة ويشاهد المناظر المبتذلة الدنيئة . . هذا الفن هو النساء وعشق النساء وموائدهن

وصحتهن إلى دور السينما والسير معهن في العربات والأزقة المظلمة المحيطة بالملاهي . اندمج الزوج تماماً في هذه الحياة وأحبها وكلف بها وصار ينظر إلى البيت ، أعني زوجته وأولاده نظرة ضيق وكره . . . وصار مرتبه لا يكفي لحياة هذا البيت ، ولهذه الحياة الساهرة اللاهية المعربدة ، وكثرت النفقات وزادت عن المرتب ، واضطر الزوج إلى الاستدانة والقرض ، والاستدانة لا تتم إلا برهن ، ومن أين له ما يرهنه ليحصل على المال ان لم يكن هذا الذي يرهنه قرط زكية أو خاتمها أو عقدها أو بعضاً من ثيابها أو أثاثها أو حتى ثيابها وثيابه . . ودليل على ذلك وما يُرهَن لا يُرد . . وليتي الراهن معذور في عدم رد الرهنية فهو يعطيه المال برهينته على عدة فتمضي المدة وصيد لا يرد المال ليأخذ الرهينة وليتي ينتظر وينتظر ثم يتصرف في هذه بالبيع أو نحوه . .

وتغيرت أخلاق الفتى ومعاملاته وأحاديثه تبعاً لكل هذا الذي جدّ في حياته فقساعلى زوجته وعلى أولاده وضاق بها وبهم ، فالحديث الحاد المرتفع ، والسباب القاسي ، والضرب الموجع ، كل هذه صارت لازمات مكملة لشخصيته .

وكانت زكية تزورنا كثيراً وتفكو إلينا وتحدثنا بكل هذا وهي تتفطر حزناً وحسرة وكنت أستمع لشكواها وأتألم لها وأعيرها اهتماماً كبيراً . وأنظر إلى زوجتي نظرة تعرف معناها جيداً . إنها نظرة لوم وعتب قاسية . فقد كنت أرجو لزكية زوجاً يكافئها إخلاصاً وحبّاً وعطفاً واهتماماً بشؤون البيت والأسرة ، وكنت بسبيل رد هذا الزوج المستهتر لولا . لولا القضاء المقدور والقدر المسطور ، كما كانت زوجتي تقول .

تلك كانت أعوام هذا الزواج الثلاثة ، وذلك هو وصفها الدقيق الصادق لا تزيّد فيه ولا مبالغة ، بل قد يكون الوصف مقتضباً ناقصاً كثيراً جدًّا عن نفس الصورة الحقيقية . وما أدري ما الذي يضغني ويهمني جدًّا ويرغمني ارغاماً على متابعة أخبار هذا الزواج وأحداثه ، مع اعتقادي الجازم بأنه واحد من مئات ألوف الزيجات التي تمت بسبب هذا الزواج وذلك الالتحاق الذين أوجدتهما الحرب ، لا أكثر ولا أقل . لست أدري ما سبب ذلك الاهتمام مني ، وما أدري ، بالضبط إن كان السبب هو قلقي على مستقبل فتاة كزكية خدمتنا بإخلاص وأمانة توجبان الوفاء لها ؟ أم هو القلق على مستقبل أطفالها

من جراء سلوك هذا الزوج المستهتر الأحمق ؟ أم هو انتقل على مستقبل عشرات الألوف من هاتيك الزوجات أمثال زكية اللاتي كان زواج الطرب الموتوف سبب تزويجهن من عشرات الألوف من الأزواج المستهترين الحمق أمثال سيد ؟ أم هو انتقل على مستقبل مئات الألوف من أبناء هاتيك الزوجات وأولئك الأزواج ، الذين سيكونون جيلاً آخر حديثاً والذين سيصيرون ، حتماً كآبائهم عاطلين لا يجدون عملاً يقتاتون منه ولا يهتم بهم أحد ولا يجتمع ولا محكومات . والذين سيظلون في عطلتهم ينتظرون حرباً جديدة ليعيدوا سيرة آبائهم فيتزوجون ويسلمون ألوف الألوف و.. و.. ؟ ؟ ربما كان كل ذلك جميعه هو مبعث قلقي وتفكيري وشغلي وتنبعي لأخبار هذا الزواج وأحداثه وأنبائه ! . .

وذات مساء ، بعد مرور هذه الأعوام الثلاثة ، وجدت زكية تدخل علي حجرتي دامعة العين حزينة القلب . وسألتها عن خطبها فما استطاعت أن تغالب البكاء إلا بعد فترة غير قصيرة . قالت لي : لقد طلقني الليلة ياسيدي . طلقني الآن وطردني بأولاده الثلاثة بعد أن أتى على كل ما أملك وأضاعه هاذا . ماذا أصنع ياسيدي ؟ . لو كنت وحيدة لهان أمري ، لكنني أربعة أنفس نحتاج الطعام والكساء والمأوى الأمين ، وأني مسكينة لا تكاد تقوى على كفاية نفسها وبقيتها ؟ .

ولم يكن الظرف مما يحتمل فيه الهزل ، فصمت الى مواساتها بكلمات طيبة ، ووعدتها بأن أكلف أحد المحامين بدعوى هذا الزوج الغادر المتمرد وإلزامه بنفقاتها هي وأولادها ، واطمأنت بالها بعض الشيء وخرجت من عندي وقد خفت حدة الألم في نفسها . ولم أكذبها الوعد ، فقد كلفت أحد المحامين المعروفين برفع دعوى النفقة وصارت الدعوى في طريقها الطبيعي وحكم لها بنفقة شهرية قيمتها ثلاثمائة قرش . ومر لي ومرها هذا الحكم السريع المعتدل ، ورحنا نتأهب وبعد المدة لتنفيذ وحجز قيمة النفقة من راتبه الشهري . لكن . .

لم يكن تمرد سيد على زكية ، وإيذاؤها ، والاستيلاء على متاعها وإتلافه ، ثم طردها وتطليقها ، هو كل ما كنت أتوقعه وأخشاه من هذه الزيجة قبل إبرامها ، كما أخبرت به زوجي الطيبة في حينه . فقد تم ووقع بالفعل أقصى ما كنت أتوقعه ! . . فقد جاءتني زكية بعد شهرين من تاريخ صدور حكم النفقة ، منقمة الوجه واجفة القلب ! . ماذا يا زكية ؟ هل من جديد ؟ وأجابت بذلة وحسرة بالغتين : لقد رفت . . رفت الفاجر وطرد من عمله في المستخدمين عنهم جزاء تمرده وإساءته إلي . . لقد استغنوا عنه ووفروه مع عديدين من أمثاله المتمردين . لكني ياسيدي أرى أن هذا الرفت والطرد ليسا عقاباً له أو مصيبة أصابته . . لكنها مصيبة لي أنا ولأولادي بالذات . . من أين سآخذ النفقة التي قدرتها

المحكمة ؟ من أين لي غذاء هؤلاء الصغار ؟ ! . . وبلغ بي الألم حداً كبيراً فتمتمت أسناني بعض ولم أستطع الكلام ، ولكن زوجتي اللبقة قالت على الفور وفي حماسة واندفاع ، هذا لا يهم . . مهما حكم فنفذه فإن عجز عن الدفع حبسناه وادخلناه السجن ، وفي السجن مذلة له وانتقام كبير . وابتسمت أنا ابتسامة باهته حزينة لهذه الروحة الطيبة البريئة ثم قلت موجهاً الحديث لصاحبة الأمر : إسمعي يا ذكية ، لا أمل يا ابنتي في مثل هذا الرجل ولا فائدة وراء الحكم الذي تحتفظين به ، ولا في السجن الذي سيذله ويهينه . إذ ماذا ستأخذين أو تستبدين من سجنه وإذلاله ! اعتمدي يا إبنتي على الله وثقي بقدرة الله ورحمته قالت : والله يا سيدي ما أملت في خير مطلقاً يعيني منه وإني لعالمة بهاينه هذه من يوم أن حدثتني ونصحتني قبل الزواج فلم أستمع ولم أنتصح . . أذكر تماماً قولك لي إنها فورة الحرب ، وكثرة الأعمال التي تسببها الحرب ، وما تلبث الحرب أن تزول فيزول بزوالها كل ما سببته من فورة ومن نشاط ومن عمل ويستريح ألوف هؤلاء العاملين ويعودون الى حياة التبطل وقد خلفوا وراءهم جيوشاً من الزوجات والأطفال يحثون عن القوت والكساء . أجل أذكر كل ذلك . . ولكنه عمى القلب وضلال العاطفة أعمياني عن الطريق السوي . لكن الآن يا سيدي ! قلت : ماذا ؟ قالت : أن أطرد ذكره من رأسي وأفكر جدياً في أمري . قلت : فذلك هو الواجب . قالت : أريدك أن تأخذ بيدي . قلت : فأنا لن أتقاعس عنك . قالت : يمكنك يا سيدي بحكم مركزك أن تلحقني بإحدى المستشفيات (تمرجية) في مستشفى قصر العيني أو مستشفى الملك أو مستشفى الأطفال . أي مستشفى » . .

وأعجبتني شجاعة الفتاة ، ووجدت من نفسي قدرة على مساعدتها على تيسير عمل لها ، فعملت . والتحقت الفتاة بمستشفى قصر العيني وصارت تسعى لرعاية أولادها الصغار ليكبروا ، وليصيروا كأبيهم عمالاً في مصانع الجيوش المحاربة في الحرب المقبلة ، ثم في فترة عملهم ورواجهم . يتزوجون وينسلون ، ثم يعودون بعد انتهاء الحرب الى حياة التبطل والتسكع لا يهتم بأمرهم أحد ولا مجتمع ولا حكومة .

ذكرت هذه القصة الأليمة حين رأيتهم ، ورأيته فيهم ، يجلسون في ضحى الشتاء الدافئة أمام مقهى المعلم هيجه ، يترشفون القهوة ، ويدخنون الطباق في القصبة الطويلة ويسعلون ويبصقون على الأرض ، وقد أطمأنت نفوسهم ، وخفت حدة الكبرياء التي كانت تملأهم وقل التحدي الذي كانت ترسله نظراتهم للناس في ازدراء واحتقار ، واتجهت أبصارهم الى تراب الأرض وكانت لا ترضى السماء متجهاً لها . . تماماً . . تماماً كما كنت أراهم قديماً . . قبل الحرب .

محمد طلعت حرب

جريمة أم قصاص

هذه قصة لكاتب القصص الشهير جوزيف كونراد وهو بولوني الاصل انجليزي الثقافة ويعد من كبار القصصيين الانجليز . ويريد أن يظهر في هذه القصة كيف أن سوء الظن اذا استشرى واستغل قد يتملك ضمير المرء حتى يحكم بالظن من غير دليل ثم يعاقب بالظن .

كان (س) ربّان سفينة حربية وكان طويل القامة وقوراً جاداً صريحاً يكره النفاق والغش، وقد انتهز فرصة إجازة قصيرة فزار حبيبته وجعل يبثها حبّه . وكانت مستلقية على مقعد وهو راكع بجانبها وقد أسلمت إليه يدها فجعل يقبلها وكأنما منعها التعب من تحريكها. ولاضير ما اضطربت أحاسيسها واختلطت في صدرها حتى اهتزّ من تنفسها أنفاساً عميقة . ولكنها قالت بصوت يكاد لا يختلف عن صوتها المألوف — قصّ عليّ قصة — وقد أخفى الظلام دهشة جليسها وابتسامته إذا ذكّرته نفسه إنه حدّثها قبل قولها هذا حديث حبه وهو أغلا ما يحدّث به رجل امرأة ولم يحدثها به لاول مرة فقال — قصة ؟ — « نعم لم لا ؟ » قالت ذلك بلهجة دلال امتعاض المرأة التي ترى أن رغبتها نافذة كشريعة القانون ومن الصعب تجنبها أو اغفالها . فردّد قولها لم لا ؟ بلهجة الساخر ، وكان متغاضباً من خروجها من حديث الحب بسهولة كما تخلع المرأة ثوباً أنيقاً . قالت وكان صوتها يهتز في نبراته اهتزاز جناح الفراشة في الضوء « إنك قبل هذه الحرب كنت تقص قصصك وأحاديثك الشائقة . فأين هي ولم تغيّرت ؟ » قال — ولكن العالم الآن يقاسي ويلات الحرب والحرب تغير أحوال النفوس — قالت قصّ إذاً قصة عالم آخر — قال إذا كنت تعنين عالم الآخرة فلا يستطيع أن يقص عليك قصته إلاّ من رحل إلى ذلك العالم ثم عاد منه — قالت — لا أعني الآخرة وإنما أعني عالماً آخر في هذا الوجود — قال سأعود بعد قليل من أجازتي إلى عملي وواجبي — كأنه بهذا القول يعاتبها لقطع حديث الحب . قالت دعنا من ذكر

الواجب فإنه قد يكون في هذه الأيام أمراً شنيعاً مادامت الحرب قائمة — قال إنك تقول ذلك إذ تظنين أن الواجب أمرٌ محدود. كلا إنَّ في الواجب ما لا حدَّ له من التفرق ... ألا ترين ذلك؟ قال هذا القول وهو ينظر إليها بحدَّة مدققاً النظر — ثم سمت قليلاً وعاد فقال سأحدثك بقصة ربَّان سفينة حربية فهي قصة من قصص عالم البحار وهي قصة حياة وموت — قالت كما في هذا العالم؟ قال ماذا تتوقعين عند ما يرسل إنسان من طينة هذا الخلق المعذب كي يبعث؟ وماذا كان يجد غير ذلك عند ما يبعث؟ وكيف تستطيعين أن تفهمي؟ قال ذلك وكان يعالج مرارة الألم. ولكنها قالت — هل هي قصة فكاهة؟ قال ستكون قصة تهمني وربما كانت قصة فكاهة ولكنها فكاهة تاسية مؤلمة بالرغم من أن مدافع السفينة الحربية لم تطلق بل ظلت صامتة كالمنظار المكبر. ولا يغيبنَّ عنك إنها قصة مأتم مضحك في هزله وجدِّه وفي سلمه وحربه. وكانت الحرب قائمة فوق الأرض وتحتها وعلى البحار وتحت البحار وفي الهواء. فهو مأتمٌ غير حكيم. إلاَّ أن بعض الكياسة لم يَحُلْ منها جماعة من التجار في الأمم الحايدة. وكان لا بدَّ من مراقبتهم مراقبة دقيقة فأرسلت الحكومة ربان السفينة الحربية لمراقبتهم حين شاع ان بعضهم يأتي بخزانات طافية ملؤها الوقود السائل في بقاع معينة كي تلتقطها غواصات الأعداء وتتمكن بهذه الوسيلة من البقاء بعيدة من قواعدها ومن أغراق سفننا الحربية والتجارية بمن فيها من محاربين أو مدنيين من رجال ونساء وأطفال. ومما كان يدهش له ربان السفينة الحربية ان صطح البحر قلما كان يتغير من حالاته في وقت السلم. فكان من الصعب أن يعتقد الرائي أن في قاع البحر كيناً ضبأً معدًّا لهلاكه حتى يرى سفينة تصاب أمامه وتغرق قبل أن تعرف ما حدث لها. ثم ينطوي عليها صطح البحر كأنْ لم يحدث شيء. عندئذٍ يوقن انه صيهلك يوماً ما كما هلك أهل تلك السفينة وسيغرق كما غرقوا وربما كان ذلك مباغتة وهو آمن. وعندما يوقن بذلك ربما يحسد جنود البر إذ يحتضرون العرق والدم من وجوههم عند نهاية المعركة ويرون أهلاء الذين هلكوا ويرون الأرض الممزقة كأنها تتألم وتدمى — نعم إنها وحشية ولكنها وحشية صريحة. أما البحر فانه يدعي أن الدنيا بخير وهي ليست بخير — إذ أنه يطوي في أحشائه آثار الجرائم التي تجترم على سطحه. قالت «آه ... اني أعرف انك موسوم

بالصراحة وصدق السريرة والغضب للحق ... ان الغضب لمحق عقيدتك » فنظر إليها بقلق وقال « أليست هي عقيدتك أنت أيضاً ؟ ألسنا شريكين ؟ » ثم عاد الى قصته فقال ان الليل سريع في اخفائه للاشياء في عرض البحار وكأن الليل نفاق صديق قديم قد عرفت نفاقه وألفته واسترحت إليه، أما الضباب فانه يخفي ولا يريح ويغيض وكأنه لا يغش . ففي يوم من أيام الضباب كانت السفينة الحربية تسير قرب شاطىء صخري كثير الاخطار بسبب الصخور التي تضمرها المياه واذا خف الضباب لاح الساحل كأنما رسم بالحبر الاسود على ورق رمادي اللون — قال مساعد الربان الحربي اني أرى شيئاً طافياً على سطح الماء . وعندما اقتربت السفينة منه رأوا أنه برميل أو خزان وربما كان من تلك الخزانات الطافية التي يلقيها بعض التجار المجشعين الحايدين كي تلتقطها غوامات الأعداء فتأخذ ما بها من الوقود السائل . هكذا شاع الخبر وان لم يقم على صحته دليل إلا اذا كان ما رآه ربان السفينة الحربية ومساعده دليلاً . قال يحدث نفسه ولكن لماذا لم تلتقط السفينة التجارية الخزان بعد تعريفه . فأجابته نفسه قائلة لعلّ ربانها رأى ضرورة في الاختفاء قبل التمكن من التعرف . فبدأ الظن يتحول يقيناً في نفسه وشعر بالتحزاز من خيانة بعض الحايدين وغدرهم . فقالت حبيبته الذي يحدثها اني أستطيع أن أفهم اشمئزازك . قال لعم فان الغش والخيانة لا يجوزان في الحب والحرب لان الحب والحرب داعيان يدعوان النفس الى المُثُل العليا ، ومن الجائز أن يتغلا عنها بدعوى ضرورة النصر فيهما — قال واستمرت السفينة في مسيرها فازدادت كثافة الضباب وانقطعت الأصوات أو خفتت لان الضباب يجعل الأصوات تتضاءل أو تنقطع ولم يستطع إنسان في السفينة الحربية رؤية إنسان آخر . وكان صوت وقع أقدام الملاحين كأنه وقع أقدام أرواح وأشباح . وكان الربان الحربي قد درس هذا الشاطىء وعرف أنّ أمامه خليجاً فرأى أن يرسو بسفينته في ذلك الخليج حتى ينجلي الضباب وعندما استقرت السفينة في الخليج كان الضباب كثيفاً حتى أنه منع الأعين من رؤية الشاطىء إلا أن صوت الأمواج وهي تصدم ذلك الشاطىء كان يصل إلى السفينة الحربية كأنه من عالم آخر غريب على قربه منها . وبعد قليل خف الضباب من ناحية مدخل الخليج فهمس مساعده في أذنه قائلاً إني أرى سفينة قرب مدخل الخليج ، فدقق الربان النظر فرآها وقال من غرائب حسن الحظ أن سفينتنا لم تصطدم بها أثناء دخولنا . وكان يظنها في بدء الأمر من السفن

التي تتاجر بنقل البضائع مرّ نظره إلى نفر على ذلك الساحل، إلاّ أن شكًّا بدأ يتردد في ذهنه وفي ذهن الضابط المساعد الذي قال انّنا دخلنا الخليج من غير صحة ولكن ربانها لابدَّ أن يكون قد أحسَّ بدخولنا ومع ذلك فانه لم ينذرنا بوجوده كي نتخذ الحذر لمنع الاصطدام. وكأنه هو ورجاله كانوا صامتين من الخوف، قال الربان الحربي نعم يخيل لي أنَّ الامر كما تقول وزاد شكه في أمر السفينة التجارية فأوصل اليها ضابطاً ينظر في أمرها ويمنعها من الخروج فذهب الضابط ثم عاد وسأله رئيسه تالاً هل هي من سفن هذا الساحل؟ . قال لا ياسيدي إنها سفينة غريبة ضلَّ صاحبها الطريق بسبب الضباب واختلال آلاتها فلجأت الى هذا الخليج خشية أن تهتم على الصخور في أثناء سيرها. وقد أصلح رجالها آلاتها وهي مهيأة مستعدة للسير، لكن ربّانها لا يجرأ على الرحيل إذ أنه يجهل الاتجاه الذي ينبغي أن يتجه إليه في سير السفينة فالتفت رئيسه الى مساعده وقال لقد كنت مصيباً إذ قلت أن رجالها كانوا صامتين من الخوف كي لا نعرف وجودهم . لكن مساعده بدأ يشك في هذه فقال إنَّ الضباب يا سيدي يحجب الاصوات ويطمسها حتى الاصوات التي في سفينتنا نكاد لا نسمعها . ولعلَّ الضباب الذي منعنا من رؤية السفينة التجارية في أثناء دخولنا منع ربانها من رؤية سفينتنا. ثم ما ذا كان مراده من إخفاء وجوده؟ قال رئيسه كي يهرب فلا ننظر في أمره . قال المساعد ولماذا لم يفعل؟ لماذا لم يهرب إنه لو حرّك سفينته ربما سمعنا صوتاً خافتاً في الضباب ولكن الضباب كان يحجب السفينة في طرفة عين فلا نعرف أين ذهبت. وعاد الضابط الذي نظر في أمرها لإتمام حديثه . فقال إنَّ أوراقها مستوفاة لا عيب فيها وبضائعها ليست من البضائع المحرَّمة في الحرب وهي ذاهبة إلى ثغر إنجليزي ولم أجد فيها مدعاة لسوء الظن ورجالها ليس عليهم مظهر ريبة وربانها من أهل شمال أوربا. والظاهر إنه كان قد أحتسى خمراً وبدأ يفيق من خمارها وقد أخبرته أني لا آذن له بالرحيل . فقال إنه لا يجرأ على أن يحرك سفينته من مكانها في هذا الضباب سواء أذنت له بالرحيل أم لم آذن — ولكن رئيسه لم يستطع قهر شكه وقال أليس من الجائز أن تكون هذه السفينة هي السفينة التي تموّن غواصات الاعداء بالوقود السائل في خزانات طافية كالخزان الذي رأيناه . قال مساعده إنك لا تستطيع إثبات ذلك يا سيدي ، والظاهر من تقرير الضابط الذي نظر في

أمرها إنه لا توجد مدعاة للريبة . قال الربان الحربي سأذهب اليها وأستطلع أمرها بنفسي. وحب الاستطلاع هو مدعاة للكره أو الحب، فما الذي كان يأمل أن يجد فيها ؟ انه كان يتلمس الشبهات ويأمل أن يجد فيها ما يسوغ شكه حتى يصير دليلاً . ولعله كان يأمل أن يرى أو يشم أو يذوق دلائل الغدر والخيانة أو ان يوحى اليه فيها إيحاء يحوّل شكه الى يقين فيستطيع أن يعمل عملاً حاسماً وأن يرفع قصاصاً صارماً عادلاً. ذهب الربان الحربي الى السفينة التجارية فقابله صاحبها ، وكان رجلاً ضخم الجسم كث اللحية وكان واضعاً يديه في ثيابه كأنما كان يخشى أن يقبض عليهما أحد. أو هكذا خيّل للقائد الحربي فان الشك إذا ساور النفس اتخذت له من كل أمر دليلاً وإن كان ليس بدليل . وكان صاحب السفينة التجارية يتمايل في مشيته فهل كان تمايله من الخمر إذ أن خيانة الخائد بتمويته غواصات الأعداء عقابها الموت ؟ أم كان تمايله من بقايا أثر الخمر التي ظهرت واضحتها لمن قاربه ؟ ! وفتح باب حجرته وأسند ظهره إلى جدار الحجرة قليلاً كأن به دواراً من الخوف أو هكذا خيّل للقائد الحربي ولكنه ما لبث أن تبعه الى داخل الحجرة وأنار المصباح الكهربائي ثم أعاد يديه بسرعة إلى ثيابه كأنما خشي أن يقبض عليهما عدوٌ وألقى بنفسه على مقعد قائلاً « ها أنا ذا » ولاح عليه كأنما أدهشه صوته أو هكذا خيل للربان الحربي الذي كان ينظر إليه كأنما يريد بنظراته أن يصل الى أعماق نفسه فيعرف أسرارها . ثم قال صاحب السفينة أريد أن أقول لك ياسيدي أني لا أعرف أين أنا فقد ازمنا الضباب أسبوعاً وكُسِرَ جهاز السفينة وكان يتكلم بسرعة كأنما يريد أن يقنع الربان الحربي بالرغم منه أو هكذا خُيّل للربان الحربي ، ومع ذلك فقد كان في حديثه فترات سكوت قصيرة كل فترة هي لمح نوان. وقد خُيّل للربان الحربي أن تلك الفترات من فترات السكوت كانت من خفية الزلل في نص قصة ملفقة ولو أنه لم يلح على وجه صاحب السفينة شيء من هذا الشعور وخُيّل للربان الحربي أن القصة مرتبة ترتيباً قلما يباغته صدق الحديث. ولكن ربما كان هذا الظن من شكه الذي لم يستطع مغالبته ، بل كان في أثناء حديث صاحب السفينة يحدث نفسه حديثاً آخر عن جشع بعض الخائدين وتمويتهم غواصات الأعداء فكأنهم هم الذين أغرقوا ضحاياها . حدّث نفسه هذا الحديث كي لا يقتنع وكي لا يخدعه حديث صاحب السفينة

وكي يشعل نار البغض في قلبه . قال صاحب السفينة إن هذا الضباب يملأ النفس قلقاً فأبي لا أكسب إلاّ الكفاف من رزق أسرتي وأشار الى صورهم المعلقة على الجدار .

قال القائد الحربي : ولكن هذه الحرب ستفنيك وتفني أسرتك . قال صاحب السفينة إذا لم تتهشم السفينة وأخسرها . ولكن لماذا تغضب ياسيدي إذا درّت الحرب على التجار أرباحاً . إننا لم نشعل نار الحرب ولو قعدنا واستمتعنا عن العمل للكسب ما انتفع العالم . قال الربّان الحربي لقد أوضحت لي كيف صرت الى هذا المكان ووصلت الى هذا الساحل ودفتر سجل سير السفينة يؤيد ما تقول . ولكن من المستطاع تلفيق هذا السجل . فأطرق صاحب السفينة ثم رفع رأسه بعد قليل ونظر الى الربّان الحربي قائلاً ولكن هل تسيء بي الظن ؟ لأي أمر يا سيدي ؟ وبماذا تتهمني ؟ ان بضائع سفينتي لتجر انجليزي . قال ذلك بصوت خيل للربان الحربي أنه متغير من الخوف كأن به بحة من القلق ولكن الربان الحربي كان يسائل نفسه لماذا لم يتذرنا بوجوده عند ما دخلت سفينتنا الخليج . ولماذا كان جهاز سفينته مهيئاً للسير ؟ أليس ذلك دليلاً على أنه هو الذي يمرّن غواصات الأعداء ؟ ثم خرج الربان الحربي واستعرض الملاحين وسألهم أسئلة فلم يستطع من اجابتهم أن يثبت كذب صاحب السفينة . فقال لا بأس إنه وعدهم أجراً كبيراً ومكافأة خاصّة ثم هم لا يخشون منا شيئاً ما داموا لا يبوحون بشيء . لم يظفر الربان الحربي بأي دليل يثبت سوء ظنه ويسوغ شكه ، ولكنه رأى أنه يحدث نفسه كأن أمر غدر هذا التاجر الحايد وخيانته لقانون الحياد أمر ثابت لا شك فيه . وعاد الى الحجرة فتلقاه صاحب السفينة وعلى وجهه دهشة فنظر اليه الربان الحربي وقال : يخيل لي أن دهشته مصطنعة مبالغ فيها فهي ليست دهشة طبيعية بل هو يتكلف الدهشة كي يقيم الدليل على براءته . فشعر باشمئزاز من غدر الناس ونفاقهم وقال في نفسه : لا شك ان كل الناس من آكلي لحوم البشرية . أليس المال الذي يكسبه التاجر من تموين الغواصات ويشتري به قوته وهو من لحم الضحايا الذين تغرقهم تلك الغواصات ؟ فكأنه يأكل من لحم الضحايا . ثم نظر إلى التاجر صاحب السفينة التجارية وقال له ممتحناً ومختبراً ألم تر شيئاً طافياً على وجه الماء ؟ . قال التاجر : قلت لك يا سيدي ان الضباب كان يلازمنا فلم نستطع أن نرى شيئاً . قال الربان الحربي ولكننا استطعنا ان نرى خزاناً من وقود سائل طافياً على وجه

الماء وكان الضباب يخف في بعض الأماكن ، ثم أخبره بما استنتجه من تلوين بعض التجار الهايدين للغواصات الأعداء. فوقف صاحب السفينة كأنه قد صعق وألقى صعوبة في التنفس ثم تكلف ابتسامة حائرة مرتبكة لا معنى لها . فأخذها الربان الحربي دليلاً آخر على أنه مجرم . وقال ان الهايدين الذين يرتكبون هذا الجرم خليقون بعقوبة أشد من عقوبة الشنق .

فقال صاحب السفينة وهو مشغول في قوله نعم . نعم . نعم . ثم فكر قليلاً وقال ربما . ربما .

قال الربان الحربي وهو محنق مغيظ ربما أنهم خليقون بعقوبة أشد من الشنق .

قال صاحب السفينة بهدوء نعم ولكن المغري لهم أولى بالعقاب يا سيدي . المغري الذي يأتي بصرة ملؤها الذهب الى رجل فقير لا يجد قوت عياله إلا بشق النفس فيفكر في تعاسة ذويه وفي الذهب الذي أمامه وأنا لا أذكر هذا عن نفسي فانك قد لا تدرك يا سيدي أني على ضخامة جسمي ليست لي الأعصاب السليمة القوية التي تدفع بي الى المغامرة فأكتفي بالرزق القليل المكفول اذ لا أستطيع المخاطرة ! ولكن الرجل الفقير الذي يستطيع المخاطرة لا يتخيل ما يحل بركاب السفن التي تغرقها الغواصات لأنها مناظر لا يشهدها ، فهو لا يرى الا الذهب وشقاء أسرته التي يسعى لكسب قوتها فيرضى أن يموّن الغواصات بالوقود السائل خلسة ويوهم نفسه انه لم يشترك في اغراق أناس . ولا أعني نفسي يا سيدي. فأنا رجل لا قدرة له على المغامرة ولو غامرت مثل هذه المغامرة لأصابني الجنون من القلق وخوف العاقبة أو لحاولت إغراق قلبي باحتساء الخمر ليلاً ونهاراً . فمن أية ناحية نظرت الى هذه المغامرة أرى الوبال والخراب

قال الربان الحربي وقد اقترب وجهه من وجهه بل الموت لا الخراب وحده !

قال صاحب السفينة هذه مسألة لا تهمني يا سيدي

قال الربان الحربي ومع ذلك فلا بد أن ترحل من هنا الآن — قال لصاحب السفينة : في هذا الضباب ؟ قال نعم . لا بد أن ترحل في هذا الضباب الآن ، قال صاحب السفينة : ولكني لا أعرف أين أنا ولا أدري كيف أقود السفينة في أي اتجاه ينجيها من الصخور

المغمورة . قال الربان الحربي ساخراً : آه انك لا تدري ؟ إذاً سأدلك على الاتجاه الذي تملكه بسفينتك — ثم ذكر له إتجاهاً باصطلاح السفن في البحار فتردد صاحب السفينة وقال أمن الحتم أن أرحل في هذا الضباب ؟ . قال الربان الحربي نعم من الحتم وإلاّ . . وإلاّ فقال صاحب السفينة لا داعي لتهديد يا سيدي سأرحل كما تريد . . ثم رحل بسفينته .

والتفت الربان الحربي الى حبيبته التي كان يحدثها حديث القصة واقترب منها قائلاً : أتعرفين إلى أي شيء كان يؤدي ذلك الاتجاه الذي دله عليه الربان الحربي ؟ انه كان يؤدي الى صخور مغمورة لا تنجو منها سفينة ترتطم بها وقد اصطدمت بها السفينة وغرقت وغرق كل من كان بها . وهذا دليل على أن ربانها لم يكن كاذباً في قوله انه يجهل أين هو فانه لو كان يدري ، ما سار في الاتجاه الذي دله عليه الربان الحربي . نعم لقد كان صادقاً ولكن صدقه لا يدل على براءته — قال الربان الحربي ذلك بقلق وهو يحاول أن يقنع نفسه أن لا داعي للقلق

* * *

ثم ترك الربان الحربي دعوى لسة حادث القصة الى رجل آخر وقال نعم أنا الذي وجهته الى تلك الصخور المغمورة وكنت أظن أن ذلك امتحاناً له واختباراً اختبر به صدق نفسه وبراءته . ولكني الآن لا أدري أكان ذلك اختباراً صحيحاً أم أني دفعته هو ومن معه الى الهلاك بالتهديد . وعندما أفكر في احتمال براءتهم يخيل لي أني أرى جثثهم في قاع البحر تأكل منها الاسماك . نعم لا أدري أكنت قاضياً وقع جزاء عادلاً صارماً ، أم كنت أثيماً ارتكب جرماً كبيراً ؟ .

فمدّت حبيبته يدها الى ذراعه وقالت . . . مسكين . . . مسكين بالتصاقك أيها المسكين !

فسحب الربان الحربي ذراعه وقبّل يد حبيبته متصرفاً — وقال لا أدري أكنت قاضياً أم مجرماً ؟ . لا أدري ولن أدري . وسأعيش ما عشت في هذه الحيرة .

— منقولة عن الانجليزية بتصرف قليل —

ع . ش

الوضع الاجتماعي

والعوامل المؤثرة فيه

« كل الأنهار تجري إلى البحر والبحر ليس بملآن . إلى المكان الذي جرت منه الأنهار ، إلى هناك تذهب راجعة » .

الشرق ، اليوم ، هو ذلك البحر الذي تصب فيه أنهار الثقافات من جميع أنحاء الدنيا . هو كالبحر في سعته وعمقه ، لكنه الآن ، ليس كالبحر في طبيعته . من البحر تتصاعد الأبخرة ، فتتعقد غماماً ، فتتساقط قطرات تكثر جميعها راجعة إلى البحر ، ما جرى منها على سطح الثرى ، وما تغلغل في باطنه . الشرق صابر يرمق هذه المياه المتدفقة ، ويصغي بلذة إلى هديرها ، ويستوعب برضى وغبطة ما تأتي به من خير وشر . هو اليوم في دور الاستعطاء والاقتباس . ولا بدّ من أن يأتي يوم يعيد فيه سيرته الأولى . فمنذ البدء ، ومن هذا الشاطىء ، سارت مع الموج أول فكرة عن الله ، وشعّ نورها في أرجاء المسكونة ، وأرشدت الناس إلى السماء وإلى الملكوت . وما فتئت الانسانية منذ ذلك اليوم تتغذى بالزاد الذي انبثق عن هذا الشرق وتتأثر به في جميع ألوان نشاطها . ويقيني ان طور النبوءات التي ترسو قواعدها على الخيال الجامح والإيمان المطلق الكفيف قد مضى ، وأن الانسانية في سيرها الطويل تدنو من العقل المقنع بالخيال ، المتسلح بالإيمان ، وتبتعد رويداً رويداً عن الخيال المطلق الصرف . وإن هذا البعد سيزداد وذلك الدنو سيتعاظم . وإنها سوف لا تسير إلاّ في أثر نبي تمثل الحضارات والفلسفات والديانات وسير أغوار الانسانية ، واهتم بتنظيم أحوالها وعلاقاتها الدنيوية التي تمهد لها السبيل للآخرة ، وأقام الدليل على تفهمه لازدواج الانسان . إن الديانات القديمة قد بالغت في الدعوة إلى الآخرة وأسرفت في اغفال المشكلات الرئيسية المعقدة التي تواجهها البشرية في مراحل وجودها . لسنا بحاجة الى من يشذب غرائز العيش فينا التي تكبتها الاختبارات وتنقيها الآلام ، بل إننا نفقد في أعماقنا نوراً يتعدى عتمة الجسد وينفذ إلى أقداس الانسان ، إلى الأسلاك الخفية التي تربطه بالألوهية الشاملة .

إن فكرة الإلاه ، المنبثقة عن الشرق ، قد فرضت أولاً على العالم فرضاً . ثم ما لبثت أن أصبحت هذه العقيدة أندس ما في الوجود وأحلاه على الاطلاق . وقد قالت عبقرية

الغرب ، شبه الأجيال التي تصرّمت على البشرية ، عاجزة عن ولادة فكرة جامعة ، سائدة بقاضي في صحوها وقداستها وشمولها الرسالات الروحية التي جاءت بها أنبياء الشرق . ولأول مرة ، بعد هبوط الحكم الطوراني ، تهض العقل الغربي من أول « رسالة » . إنها لا تتسم ما فات من الرسالات الأولى ، بل إنها تنسف وتنقض كل ما جاءت به تلك الرسالات . إن الغاية التي توخّاها الأنبياء والرسل ، وداً بوا على تحقيقها ، هي أن يرفعوا الإنسان من الأرض إلى السماء ، من الشر إلى الخير ، من الخطيئة إلى الطهارة ، من مخالب الشيطان إلى حضرة الرحمن . أما « رسالة » كارل ماركس ، في تصوره المادّي للتاريخ ، فإنها تهبط بالإنسان من السماء إلى الأرض ، وتنتزعه من أحضان الألوهية لتلقي به في أتون الغرائز البشرية الطائشة من كل قيد ، ولتجعله رهن مشيئة الأعاصير الاقتصادية السائدة .

وكما أنّ الفكرة الدينية قد تعهدتها مؤسسات ، تولت التبشير بها ، حسناً بالقلم واللسان ، وأحياناً باليد ، واعتبرت أمراً واقعاً مقدّساً في عرف الجماعة ، وهكذا ، فإنّ المادية التاريخية تولت التبشير بها أحزاب منظمة تنظيماً آلياً ، واقتلعت العقيدة الدينية الأصيلة في أصقاع كثيرة وحلت محلها ، وكما أنّ مبدأ الألوهية قد تجسّد في اليهودية والمسيحية والإسلام ، كذلك المادّية التاريخية التي قال بها ماركس قد تركزت في الدول والأحزاب الشيوعية . فنشأ عن ذلك أن الانسان في هذا العصر أصبح واقفاً على مفترق الطرق ، وهذه الطرق مشتبهة غير متشابهة . وقد ارتطمت المفهومات الدينية التي اقتبسها عن أنبيائه ورسله بمفهومات وتفسيرات مادّية جديدة للكون والحياة والانسان ، تفرضها بعض الدول على الشعب قرضاً ، وتحرّمها العقائد والنظريات .

وقبل كل شيء تصطدم المادّية التاريخية بالمعتقد الديني وتنافي جوهر الدين وما يتفرّع عنه مناقضة تامّة . فالعقيدة الدينية تقول : في البدء كانت الكلمة : وأن الشعور الديني شامل ، متأصل في أعماق الانسان ، غريزي ، وما انفكّ منذ الأزل وهو يعزو الوجود وما فيه إلى قدرة تسمو على العقول والإحاطة والإدراك الإنساني . ولم يتورّع البعض عن القول إن الإنسان حيوان متدين . أما الشيوعية الماركسية فتؤمن بالعقيدة القائلة : في البدء كانت المادّة . وبينما ترى الكتب المقدسة تقرر أن الله قد خلق الإنسان ، يجعل التصوّر المادّي للتاريخ الانسان خالقاً لله ولفكرة الألوهية . ويتوقع الشيوعيون في السياق الطويل نضوب النزعة الدينية وعمّ الفكرة الإلحادية . ولا تأمل أن يكون هذا النضوب ثمرة النزاع الطبقي تلقاء المؤسسات الدينية والفكرة الدينية ، أو انتشار الثقافة وتبلورها في الذهن ، بل نتيجة التحرر من العوز . لأن النزعة الدينية حسب التحليل الذي أوجدته المادّية التاريخية

الدين، ما استقرت في النفوس وتمكنت أصولها في القلوب، والتفت كالأفعى حول البشرية، إلا في زمن متوغل في القدم، كان الانسان فيه خاضعاً لقوى لا طاقة له على كفاحها ومصارعتها. وفي تلك الحالات التي تشعر فيها غريزة الانسان بن جراء الجوع والجهل، يأخذ يتضل ويتهم بالدين ويمارس الصلاة ويتخيل آخرة تعوّض عليه ما فاته من الحظ في الدنيا، بنية أن ينسى آلامه الحاضرة. فتمكنت الخرافة من استعباده والسيطرة عليه وتسييره وفق هواها، بدلاً من أن يبذلها ويتحررمنها. وينبغي على الدولة، في مثل هذه الحال، وهي أقوى وأكبر مؤسسة سياسية، أن تقود الحملة التحريرية من ربقة الكوابيس الوهمية. وقد جاء في المادة ١٢٤ من الدستور السوفياتي الصادر في ٥ دسمبر ١٩٣٦ ما يأتي:

« ولكي تضمن للمواطنين حرية الضمير، أصبحت الكنيسة في الاتحاد السوفياتي والمدرسة منفصلة عن الدولة، وللمواطنين حرية ممارسة العقائد الدينية وحرية الدعوة ضد الدين ».

وبتنا في هذه الأيام نسمع من يقول أن الشيوعية تشبه المسيحية من وجوه كثيرة وإنها لا تناقض مطلقاً الصورة التي أرادها يسوع للمجتمع البشري. ومن يتدبر هذا القول الذي أريد به باطل، برؤية ودرس وتمحيص، يدرك أن الجمع بين المذهبين مستحيل. فإن الشيوعية تؤمن أن الإنسان لم يتطوّر من حال إلى حال إلا بتأثير المادة فقط. فهي التي تنشىء وتنمي وتعين وجدانه وخياله واتجاهاته الفكرية. أما المسيحية ككل الرسالات السماوية فحقيقتها، ترمي اصولها على الإيمان بالله والآخرة والدينونة والاعتراف بالملكية والخير والمحبة. وما من قوة تستطيع أن تؤثر بالانسان وتخلقه خلقاً جديداً إلا ملكوت السموات، « يشبه ملكوت السموات خميرة أخذتها امرأة وخبأتها في ثلاثة « أكيال دقيق حتى اختمر الجميع. » وان يسوع لم ينادِ بثورة تقلب نظم الاجتماع والاقتصاد والسياسة. إنه حث الفرد أن يثور على نفسه لا على غيره، وان يكافح ما يكمن فيه من مفاسد وشرور، لا أن يخاصم جاره أو أيّ كان من الناس. ذلك يقيناً منه ان الاصلاح لا يأتي من الخارج بل ينبع من الداخل، من أعماق الشخصية، من ذلك الكهف الذاتي. وأما أنا فأقول لكم ان كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه. اجعلوا الشجرة جيدة وثمرها جيداً، أقول لكم ان كل كلمة بطالة يتكلم بها الناس سوف يعطون عنها حساباً يوم الدين. أيها الفريسي الأعمى نقِّ أولاً داخل الكأس والصحفة لكي يكون خارجهما أيضاً نقياً ». إنه لم يحرض الفقراء على الأغنياء ولم ينغمس بالنزاع الناهب بين هاتين الطبقتين دائماً وأبداً، لا محالاة أو رهبة منه للطبقة الغنية، ولا استهتاراً أو مقتاً للطبقة الفقيرة، بل لأن هذا النزاع العنيف لا ينبثق منه صلاح وخير بل فساد وشر.

إنه لم يتورّع عن التشبه الشديد بالأغنياء فيقول : « ويلٌ لكم أيها الأغنياء . ويلٌ لكم أيها الشباع لأنكم ستجوعون » ، ويلتفت إلى الفقراء قائلاً « طوباكم أيها الجياع الآن لأنكم تشبعون . طوباكم أيها المساكين لأن لكم ملكوت الله » . إن التفرج بالآخرة لا بد من أن يحدث صدًى بعيداً في تلك النفوس القانعة المطمئنة التي انكمشت على الضلال إذ انكمشت على النفس ، وضمت جراحها عن الحقد والبغضاء إذ أبت أن تنفتح على المحبة والعطاء ، وغلّت يدها إلى الصدر فلم تستمرئ لذة البذل والسخاء . ان الكلمات الوديعة التي تفوّه بها يسوع ، الصادرة عن نفس مطمئنة مؤمنة لن تنسجم مع تلك الصرخة الثورية الصادرة من صدور مفعمة بالأحقاد والضغائن والبغض . « ان الثوريين يصرخون علانية أن آراءهم لا يمكن أن تتحقق إلاّ إذا مني النظام الاجتماعي التقليدي بانقلاب عنيف » . وبينما نرى يسوع يقول لأحد الذين معه : « رد سيفك إلى مكانه لأن كل الذين يأخذون بالسيف بالسيف يهلكون » . نسمع الجماعات الثورية تصرخ بلسان جورج سائد : « الكفاح أو الموت . الصراع الدامي أو العدم » . وتنشر إحدى الجرائد الماركسية الثورية هذا النداء الذي يدعو إلى ثورة لا تبقي ولا تذر ، ولا تقع فيه على أثر للرحمة أو الانسانية . «هيا اذبحوا ! لكن الانتقام نظيماً» هكذا يجب أن تكون لازمة الأناشيد الثورية ، وهكذا سيكون الصوت الذي سوف تطلقه الهتة التنفيذية بعد انتصار طبقة العمال . « في الأوقات العصيبة يتحتم على كل ثوروي مؤمن أن يضع دائماً نصب عينيه هذا المصير : إما أن يتوصل للقضاء على أكبر عدد ممكن من أعدائه ، أو يتأهب للقضاء على نفسه » . وجاء في جريدة أخرى : « ان هذا الجمهور . . يفهم جيداً أن من مصلحته أن يذبح المالك ويحرق الأكواخ المرهونة ، ويستولي على القصور الجميلة التي هادها بنفسه ، ويحطم الصناديق الحديدية ، ويقلب كل سلطة : فيشنق الملك والوزراء والشيوخ والنواب والعامين وضباط البوليس وكل أذنابهم . ان هذا الجمهور الحقير سوف لا يصبح أكثرية إلاّ في يوم الثورة بالذات » .

ما هي القوى التي تكيف المجتمعات البشرية وما هي المؤثرات التي تحدد وتعين الوضع الاجتماعي ؟ على هذا السؤال يجيب كارل ماركس ، ومن خلال جوابه تتبدى نظريته القائمة على التفسير المادي للتاريخ : « ان الناس في انتاجهم الاجتماعي خلال وجودهم ، تنشب بينهم علاقات محدودة ضرورية خارجة عن ارادتهم . وان العلاقات الناجمة عن الانتاج تتناسب مع درجة التطور الذي بلغته قوى الانتاج المادية . ومجموع هذه العلاقات الناشئة عن الانتاج تكون بنية المجتمع الاقتصادية ، وهي الأساس الذي يقوم عليه بناء حقوقي وسياسي ويتصل بأشكال معينة من الوجدانات الاجتماعية . إن أسلوب الانتاج في الحياة المادية يطبع

مظاهر الحياة الاجتماعية والحقوقية والفكرية على وجه العموم . وليس وعي الناس هو الذي يحدد كيانهم ، بل على العكس ، فان كيانهم الاجتماعي هو الذي يحدد وعيانهم » .

وجاء في « البيان الشيوعي » على لسان ماركس وانجلز : « أتحتاج إلى ذكاء حاد وعميق لتفهم ان أفكار الناس ونظراتهم الواقعية ، وكذلك مبادئهم التي تتعلق بالماهيات ، وبكلمة وجدانهم ، تتحور جميعها تبعاً لظروف وجودهم وعلاقاتهم الاجتماعية ويتكلمون عن الأفكار التي تثير المجتمع بكامله ، وهم في ذلك لا يقررون إلا واقعاً وهو ان العناصر التي يتكوّن منها كل مجتمع جديد ، قد تكونت في المجتمع القديم ، وان انحلال الأفكار القديمة يسير جنباً إلى جنب مع انحلال ظروف المعيشة القديمة » .

ولكي تتحقق آمال ماركس وانجلز وتصدق نظريتهما ينبغي أن تنشب ثورة عنيفة يتم فيها النصر للطبقة العاملة التي تأخذ على عاتقها نسف المجتمع البشري التقليدي وازالة رأس المال وكل أساليب الانتاج القديمة التي اعتمدتها البشرية في الزمن القديم .

هذه هي زبدة النظرية التي قال عنها انجلز نفسه : « ان ناموس المادية التاريخية الذي اهتدى إليه كارل ماركس ، يضاهي ناموس الجاذبية الذي توصل نيوتن للكشف عنه » . ويقول لابريولا : « ان الشيوعية تستطيع أن تتنبأ عن المستقبل » .

يبدو لنا من فحوى هذه الأقوال ان الشطط الذي تنطوي عليه يطغي على الصواب ، وان المغالاة تفوق حد الاعتدال وذلك راجع لسببين : أما الأول فهو ان المشيعين المغالين قد عدوا نظرية المادية التاريخية في عداد النظريات العلمية الثابتة التي لا تقبل النقض مطلقاً وتصدق في كل زمان ومكان ، والثاني لأنهما تناولت بالتفسير والتعليل حالات اجتماعية تاريخية نفسية . وفي التاريخ والاجتماع لا يمكننا أن نرتجل نواميس اضباطاً ونقرر أن الجماعات ستسير حتماً بموجبها . فاعتبارنا النظرية القائمة على الظن ، أو التي ثبتت صحتها في ازمنة وأمكنة وحالات معينة ولم تختبر في أزمنة وأمكنة وحالات مختلفة ، قانوناً علمياً لا يتزعزع .

ان كتاب « رأس المال » الذي ألفه ماركس نحا فيه نحواً جديداً وأثار اهتمام المفكرين عامة والمؤرخين خاصة ، إذ أنه أشار مشدداً إلى الدور الذي يلعبه العامل الاقتصادي في حياة الأمم وكيان الشعوب . كان الأساس الذي يرسو عليه علم التاريخ والدراسات الاجتماعية واهياً جداً . كان المؤرخون لا يعنون إلا بالناحية السياسية والعسكرية . ويعد الملك وحده قوة وحيدة فعالة في جميع نواحي حياة الأمة . ولما تزل مؤرخ العصور الأدبية وتحددها تبعاً للعصور السياسية .

ومما لا مشاحة فيه أن التطورات التي طرأت على أساليب الانتاج قد أحدثت تطوراً في العلاقات الكائنة بين العامل وصاحب العمل ، وقضت على الجفاء ، واللامبالاة التي اتسمت

بها العصور التي تقدمت الثورة الصناعية ، وأثرت في حياة العمال ومستوى معيشتهم ومدة عملهم ومقتنياتهم من الثياب والأثاث وتبدلت وغيرت تبدلاً كلياً . فالإنتاج الصناعي الضخم سبب أرباحاً هائلة تدفقت على صاحب العمل وحسن ظروف العمال . وعن ارتفاع الأجور تمخض الذهن عن رغبات جديدة أو كامنة . وبفضل الامكانيات المادية التي أصبح ينعم بها العامل وطبوع الحرية ، وانتفاء الامتيازات ، وتعدد نواحي الخير في الحضارة الحديثة ، استطاع أن يلج جميع الأبواب وتتسع بصورة التذاذ . وبفضل تقنين مدة العمل أصبح ينعم بمجموعة من أوقات يتفقها في اللهو والمرح ، أو الانصراف للاستزادة من الثقافة ، أو الاستمتاع بالجو العائلي . وفي ظل النظام الاقتصادي السائد تصدعت أركان العائلة وطغت الروح الفردية في أعضائها فتبدد شمل الأسرة . وقد لخص ماركس هذا المصير الكئيب الذي تنتهي إليه العائلة . فيقول : « إن الكلام الفارغ عن العائلة والتربية والحنو القائم بين الآباء والأبناء يصبح مضحكاً للاشمئزاز ما دامت الصناعة العظيمة ماضية في القضاء قضاء مبرماً في صفوف العمال على الروابط العائلية . فبعامل الأولاد وكأنهم سلع تجارية بسيطة وأدوات للعمل . فالأسرة بدلاً من أن تكون ملاذاً لأعضائها يفزعون إليها كلما أحدقت بهم الهموم قد تفرق أبناؤها وتشتتوا . وهكذا فقدت العائلة العنصر الهام الذي يبرر وجودها ويدعو لإجلالها ، وهي الوحدة التي ينميها الاجتماع وما يتطلل الاجتماع من تعاطف ومحبة وعناية . وتحول البيت الى مجرد مخدع يفد إليه أفراد من مختلف الانحاء وفي أوقات مختلفة ، قد أنهكهم التعب ، وامتص المجتمع ما في قلوبهم من حب وعطف ، وقضى المصل والشارع على ما في نفوسهم من عفة وطهارة ، واستنزف الطيش ما في جيوبهم من مال . وبما أن المرأة في المجتمع الماركسي تعد عاملاً اقتصادياً أولاً وأمًّا ثانياً ، فقد انتزع صغارها من حضنها وأرسلوا إلى رياض الأطفال . ولئن قدر لهم أن يحظوا بالعناية والغذاء فإنهم يظلون مفتقرين الى العطف والحنان اللذين لا ينضحان إلا في صدر الأم . وبدأ العامل يحاكي من هو فوقه ثروة وغنى ومجاريه في معاشه وأطوار حياته . ولكي يبلغ الدرجة التي يصبو إليها ، ويتذوق ألوان الترف والرفاهة ، عمد إلى تحديد النسل وأذن لزوجه وبنيه بالعمل كي يخففوا العبء عن كاهله . ثم أن التطور الاقتصادي حدا بالحكومات أن تسن قوانين تتعلق بالعمل وشؤون العمال فنحتهم حق تأليف النقابات ، ومنحت لهم المساعدة في حالة المرض ، والتعويض في زمن الشيخوخة ، وفرضت شروطاً على أرباب العمل فيما يتعلق بالنساء والأولاد وحالة البناء وساعات العمل ... وأصبح للعمال بفضل تكتلهم وزن يذكر في الشؤون السياسية عامة .

هذه هي عمل النواحي التي تأثرت ولا تزال تتأثر بالعامل الاقتصادي وبأساليب الإنتاج. أما ماركس فانه يعزو الى العامل الاقتصادي « كما يقول انجلز » فقرة تعريف عند التصوّر : فهو الذي يكيف شؤون معيشتنا والسياسة والقانون والدين والأخلاق ، وبالجملة جميع نواحي النشاط الإنساني . إن هذا التفسير المادّي للتاريخ يعتبر تامًّا جميع الآراء والنظريات التي تقول ، وثبت حقيقتها ، إن الانسان يتأثر بالدين والأرض والعرق والخصائص الجسدية والنفسانية . ويعزول عن المؤثر المادّي ، فانه يمر بهذا الكون كما تمر سحابة صيف . فالدين الذي ينكر أثره ماركس من أعظم المؤثرات في المجتمع البشري. وقد ساهمت الديانات مساهمة عظمى في جميع التطورات والمراحل التي مرت بها البشرية. وكثيرون يعزون تقدم بعض الشعوب الى رقي الديانة وسموّ مبادئها التي يعتنقها أبناؤها . ثم أن الدين في لبابه مبادىء أخلاقية تهذب سلوك الانسان وتصلح نفسه وتطهرها من أدران كثيرة . والدين يتوخى السلام الدائم للانسان في هذا العالم والحياة في جوّ من المحبة . وكل رسالة دينية تتضمن نواهي ومواعظ تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتحض على البر والرأفة والوفاء. وأن الانسان تأثر الى مدى بعيد جدًّا بالطبيعة وما يتعاقب عليها من فصول وبكر من ليل ونهار . نعم أنه تأثر بالنهار الذي يبعث الأفراد ويبدّد الخمل ، وبالليل « ليل الأشباح والأرواح والأخيلة » كما يقول جبران ليل الظلام والمخاوف التي تفرض الاجتماع فالائتلاف . وبهذا الصدد يقول : ألان : « إنّ مؤسساتنا وليدة الليل قبل أن تكون وليدة الجوع أو العطش أو الحب » . ومن نظام الحراسة الذي يفرضه الليل يمكننا أن نفهم « لماذا تفضل الأمانة على الشجاعة » . ولن يقوى الانسان أن ينجو من أثر المرأة وما ينشب بينه وبينها من علاقة ، وما يتخلل هذه العلاقة من حبّ وبغض ، ووصل وهجر ، وما تتصف به من فتح وجمال ، وما يؤثر عنها من فضيلة ورذيلة ... ويتأثر كذلك بالرجال والأولاد ، والصحة والمرض ، والحرب والسلم ، والكفر والايمان . من هذه الأمور وغيرها يتكوّن نسيج حياتنا . ولاختلاف التضاريس ، وتنوّع المناخ ، وحدوث الغزوات والحروب والهجرات ، والحدود المنيعة التي تحدّ من فعاليات الشعوب ومن مدى اختلاطها واحتكاكها نصيب عظيم في نشوء المدنيات ونموها وتقهقرها .

إن مبدأ المادّية التاريخية ينافي تمامًا مبدأ المسؤولية في الانسان ويفقد حرية الاختيار، وتسقط عنه مسؤولية الخير والشر ولا يحق للمجتمع أن يناقشه الحساب لأن لا قدرة له ولا حيلة في صوغ طباعه وتهذيب مناقبه وعواطفه بل هي رهن مشيئة قوة جامدة آلية .

والايمان بالمادية التاريخية يولد عقيدة الجبرية الاقتصادية التي تحدد مصير الانسان

تحديداً رياضيًا . فما دامت أساليب الانتاج هي التي تعين وجدان الأفراد والجماعات فينبغي أن تتماثل الجماعات البشرية في أخلاقها وعواطفها ودياناتها وفنونها وآدابها ، إذا تماثلت أساليب الانتاج فيها وبلغت درجة واحدة من التطور الاقتصادي . وفي الواقع ان التباين في هذا العصر الصناعي قد عظم وازداد وضوحاً وانتشاراً . ولا تتوفر المماثلة إلا في البيئات المتبدية المتكلسة . ومرد ذلك الى أن الجماعات البشرية لا تخضع للمؤثرات الاقتصادية فقط ، بل أنها تتأثر بمجمع التيارات ، من أدبية وعلمية وفنية ونفسية ودينية ، التي تتفاعل طبقة ضمن مجموع القطر الواحد ، وتتأثر بالتيارات المنبثقة عن مختلف البلدان . وقد أصبح من الميسور في هذا العصر انتشار الحضارات . ويزداد التنوع ويعمق وينظم بمقدار ما يتمتع الانسان بحرية العمل والقول والتفكر والوجود . فالعمال الذين يعملون مجتمعين ساعات معدودات في المصانع ، يتفاعلون فقط ضمن الجو العملي وما يتفرع عنه من اهتمام بمصالحهم وأجورهم . لكنهم لا ينعزلون عن المجتمع الذي يعيشون بين ظهرانيه ، ولا ينقطعون عن التأثر والتأثير به من شتى النواحي . ان المجتمع زاخر بالمؤسسات الثقافية من علمية وأدبية ودينية ، والصحافة والمسارح والنوادي والكتب وغيرها من ألوان النشاط الفكري والاجتماعي .

وإذا كانت الشيوعية الماركسية مؤمنة بمناعة وصحة التفسير المادي للتاريخ ، وان الانسان لا يملك له من سلطان أساليب الانتاج ، ولا يستطيع فرد مهما عظم أن يكون دولاباً يدور بحتمية بين دواليب تدور بسرعة ، فعلام تراها تتوسل لاقرار هذا المبدأ بشتى الوسائل والسبل : انها تشجع كل حركة ترمي الى الاضراب والانتفاض والشغب ، وتوجه الصحافة والتأليف والتفكير والوجود توجيهاً صارماً عنيفاً لا رحمة فيه ولا هوادة ، وفق هذه الأهداف . وتراها تعاكس وتعوق كل اصلاح ، اجتماعيًا كان أم اقتصاديًا ، ذلك لأن كل محاولة ترمي الى اصلاح الفاسد تؤخر الثورة التي تقلب المجتمع انقلاباً يمتد الى الأعماق .

ويقيني أن الآلة التي ابتكرها الانسان والأساليب الاقتصادية التي طرأت على الانتاج لم تنفرد وحدها بالتأثير في حياة العمال أنفسهم ، بل أن الفضل العظيم يعود الى زعماء انبثقوا من صميم الشعب يحملون بين جوانحهم قسطاً كبيراً من العطف والرحمة وقسطاً أكبر من الفهم والوعي لشؤون العمال ومشاكلهم . ومن الامتهان لعبقرية الانسان وفكره وخياله ان نهبط به الى مستوى الآلة الجامدة ونقارن بينه وبينها . وان في شخص ماركس نفسه ما ينقض قوله ويدحض زعمه . فعندما وضع تآليفه لم يكن سوى مثالي idéaliste من طراز كبير . فمثله ومثل غيره مثل مشكاة استضاء بها العمال للاهتداء الى الحقوق المهضومة . ولعل حالة العمال لم تكن ما هي عليه الآن لو لم يوجد ماركس .

ذكرت قبلاً أن لابريولا يقول « إن الشيوعية تستطيع أن تتنبأ عن المستقبل » والآن أتساءل : هل تحققت النبوءات التي توقع ماركس حدوثها ؟ لقد تنبأ أن الملكية الصغيرة سائرة في طريق الزوال وستحل محلها الملكية الجماعية . ويرد السبب إلى انتشار وسائل الإنتاج والقوى البشرية التي تتبدد فيما لا طائل تحته والفقر الذي أصاب التربة من جراء الاستغلال المتتالي ، إن هذه النبوءة — ازالة الملكية الفردية — لم تتحقق طبيعياً ، بل تمت في الأقطار التي استعمل فيها العنف والمصادرة بغية تنفيذ هذه النظرية . أما في البلدان الأخرى فقد عمدت الحكومات الى تحديد الملكية الفردية تأميناً للمصالح العامة ولإيجاد الانسجام بين مختلف الطبقات لا القضاء عليها . وفي عام ١٨٥٠ كان عدد الأسر في انجلترا التي تملك من ١٥٠ — ١٠٠٠ جنيه ، ٣٠٠٫٠٠٠ عائلة . وفي عام ١٨٨١ بلغ هذا العدد ٩٩٠٠٠٠ أسرة . فما دام عدد الذين يملكون يزداد ، وعدد الذين لا يملكون يتضاءل ، فإننا نبتعد عيناً فشيئاً عن الحجة التي تنبأ عنها ماركس . وفي ذلك يقول كولسكي : إذا كانت المساوىء الكبرى الناتجة عن أسلوب الإنتاج الرأسمالي لاصقة بأوائله فقط ، وينبغي أن تتناقص فيما بعد ، واذا كان عدد أولئك الذين يملكون يزداد ، وإذا كانت المتناقضات الاجتماعية تتضاءل عيناً فشيئاً ، وإذا كانت الطبقات العاملة تأمل أن تتحرر أو على الأقل أن تحرز مكانة مرضية ، فأية فائدة تنجم عن الاشتراكية ؟ أقر بصراحة إنني أعتبر الاشتراكية خطأ فادحاً » .

وليست الحروب التي ملأ ذكرها بطون التواريخ . إلا نزاعاً بين الطبقات التي تعود في منشئها إلى التفاوت في المراحل الاقتصادية . ويقول انجلس : « إن ماركس أول من اكتشف الناموس العظيم الذي يسم الحركة التاريخية . وطبقاً لهذا الناموس ، فان كل ما حدث من المعارك التاريخية في الحقل السياسي والديني والفلسفي وفي أي حقل آخر مثالي ، ليست إلا تعبيراً صادقاً تقريباً عن المعارك التي تنشب بين الطبقات الاجتماعية . وينجم عن هذا الناموس أن وجود هذه الطبقات ونزاعها يرتبطان بالمرحلة التي بلغتها حالتهما الاقتصادية وأساليب الانتاج ، وأخيراً بأسلوب المبادلة الذي يتفرع عن الانتاج » .

ويستخلص من رسالتين كتبهما انجلس إحداها في ٢٧ اكتوبر ١٨٩٠ والاخرى في ٢٥ يناير ١٨٩٤ أن الظواهر الاقتصادية هي الباعث الأول على حدوث المظاهر السياسية والحقوقية وحتى التصورات الدينية التي لا تعد إلا ظلالاً اقتصادية . ولو لم يوجد نابوليون لاحتل آخر مكانه . فان كل شيء رهن الواقع والضرورة » .

هل الحروب التي جرت في العصور القديمة أم الحديثة كانت حروباً طبقية أم حروباً بين الأمم ؟ ان جميع الحروب التي نشبت في الشرق والغرب لم تكن حرباً بين الطبقات ، بل انها

في الصميم نزاع بين القوميات التي تقطن أوطاناً معينة وتتكلم لغة واحدة وتنتسب إلى أقوام تخضع في كينونتها لدورة حياة واحدة . وان الحامل لما يحقق حلم ماركس الجميل : « العمال لا وطن لهم » لجميع الأحداث ، وأقواها الحرب الاخيرة برهنت أن العامل مواطن قبل وبعد كل شيء وإنه ينظر إلى الامور ويزنها من خلال مصلحة أمته . وما من ثورة أو حرب أو عصيان إلا ساهمت فيها جميع الطبقات وكانت نتيجة لعوامل اقتصادية وسياسية واجتماعية وعرقية وغير ذلك من الاسباب الخفية . من ذا الذي قام بأعباء الثورة الفرنسية ؟ يقول سان سيمون : « ان الثورة الفرنسية كانت من صنع العلماء والفنانين الذين آذنهم النظم الاقطاعية في الصميم ، فقذفوا بالمعدمين الجوعة ضد المالكين المحافظين » . وليست أساليب الانتاج التي حدت بالشعب إلى الثورة ، بل كتابات فولتير التي ما انفكت تحض على التحرر الذهني حتى تنال الحرية ، وكتابات روسو التي كانت تدعو إلى الفوضى الاجتماعية إلى أن تحصل المساواة والعدل . ولم يقم العبيد وحدهم في الثورة التي نشبت في روما ، بل كان يوجد بينهم عدد غير قليل من الأغنياء الذين كانت تحدو بهم الرغبة إلى تسلم زمام الشؤون السياسية التي لا تتطلع إليها الطبقة الفقيرة المعدمة . فتضافرت مطامع الطبقة الفقيرة التي تتوخى العدل الاجتماعي ومطامع الطبقة الغنية التي تنشد المنصب والجاه . وان الحروب الصليبية لم يكن سببها الباعث الاقتصادي ولم يكن رائدها الاقتصاد ولم يلح فيها شكل الطبقات والفوارق العنصرية واللغوية والاقليمية ، بل إنها سهرت قوميات شتى كانت متباعدة متباغضة . وتعود في أبعد أسبابها إلى نعرات دينية تمثلت في الفريقين المتحاربين . وان الذي دفع إليها ونمى الحركة وجعلها تشمل معظم شعوب أوربا الباباء ذاته . ولا يتطرق الشك إلى مدى السلطة التي كان يتمتع بها يومئذٍ . فقد جمع في قبضته السلطتين الزمنية والروحية . ولم يكن يسعى لتيسير سبل التجارة ، بل كان يسعى لانتزاع القبر المقدس من قبضة الدولة المسلمة المسيطرة . وقد ترتب على هذه الحرب الدينية نتائج اقتصادية خطيرة : فتوهجت العلاقات بين الشرق والغرب ولاحت للفريقين امكانيات تجارية لم تكن في الحسبان فان القبر المقدس أصبح يجتذب سنوياً ألوفاً من نصارى الغرب الذين يؤمون الديار المقدسة . وقد نشأ عن تدفق الحجاج الى سوريا شركات للملاحة في البندقية ومرسيليا . وليست أعدو الغرض المعقول إذا قلت أن اكتشاف أميركا فكرة نبتت من صميم العلاقات التي تلت تلك الحروب . إذ من المعلوم أن مدن الشرق : القسطنطينية وحلب ودمشق وبغداد ، كانت أسواقاً لحاصلات الشرق الرئيسة . وان ابان غزوتهم سوريا قد تعرفوا الى هذه المراكز . وتذوقوا الأطايب وشاهدوا العاج والأقمشة الحريرية والسجاد . وعلام كان يبحث كولمبوس ؟ ألم

تكن الهند ، منبع الغرائب ، هدفه ؟ وأن البرد الذي أصاب التجار من تنول الطريق الشرقية وأثرها في ارتفاع الأسعار حملت أولي الشأن على التفكير جديًا في الاتصال مباشرة بالهند . وعلى أثر الحروب الصليبية تغيرت معظم خطوط الملاحة وطرق التجارة البرية . ولا يتسع المجال لذكر الفوائد الزراعية والصناعية والعلمية التي حصل اقتباسها من قبل الطرفين لدن احتكاكهما .

وتستولي علينا الحيرة إذا ما رمنا تعليلاً صحيحاً لاختراع المطبعة . هل هي التطورات الاقتصادية أم الثقافية التي وجهت ذهن جوتنبرج ودفعته للبحث والتفكير بطريقة تريح الناس من عناء النسخ ؟ لا نجد لذلك تعليلاً معقولاً إلا في التقدم الثقافي وتفتح الأذهان وما ينشأ عن ذلك من رغبة ملحة للمطالعة والبحث والتنقيب واقتناء الكتب . ولعل أثر اختراع المطبعة ، وطبع الكتاب المقدس ونشره بين الناس بلغة سهلة سلسة ، بعد أن كان وقفاً على الكهنة ولا يتجاوز نطاق الصوامع والأديرة ، حملت حركة الاصلاح الديني التي نادى بها لوثيروس . زد إلى ذلك الكراهية التي كانت تضمرها الشعوب الشمالية للشعب الايطالي الذي يتحكم في شؤون الكنيسة . وقد أزكى لوثيروس هذا الاستياء بمدعودته من روما إذ قال : « ان الجرائم في روما لا توصف . فمن الألمان شريرون . أمّا الطليان فانهم كفرة ويزدرون بالدين الحقيقي . إنهم يسخرون منّا نحن المسيحيين ، لأننا نؤمن بكل ما جاء في الكتاب . . . ويخصون القديس أنطونيوس أكثر مما يرهبون المسيح . . . » وكانت النهضة الأدبية في القرن السادس عشر نتيجة لازمة لبعث الثقافتين الأغريقية واللاتينية ونشر المؤلفات القديمة . إن المطبعة أحدثت حركة للنهضة في القرن السادس عشر ، أما في القرن التاسع عشر فانها نشرت المجلة والجريدة . ولا يمكننا بحال من الأحوال أن نحدد الأثر العظيم والدور الكبير الذي لعبته الصحافة في العصر الحديث . إنها أكبر أداة للتوجيه والاذاعة في هذا الجيل . وإن ماركس نفسه مدين للصحافة التي عملت على تبسيط ونشر نظرياته ومبادئه في صفوف الشعب . ولا يعد تحقيق الماركسية الشيوعية في روسيا انتصاراً لمبدأ المادّية التاريخية بل تكذيباً قاطعاً وتأييداً صارماً لضعف النظرية وفشل النبوءة . ذلك لأن الثورة الشيوعية نشبت في البلاد التي لم تترعرع فيها الرأسمالية وتظهر مفاسدها ومساوئها ، وإن أساليب إنتاجها كانت متأخرة إذا ما قورنت بالدول الغربية ، لكن استتباب الأمر للشيوعية عام ١٩١٧ يعود إلى ضعف الجهاز الحكومي القيصري الذي انهار عند أول صدمة ، وبانهياره آلت البلاد إلى يد عازمة حديدية هي الحزب الشيوعي . وقد تكون روسيا مدينة في ثورتها الاجتماعية ـ الاقتصادية ـ السياسية لا الى ماركس وتلاميذه فحسب ، بل الى الشبان الذين عاصروا مراحل الثورة الفرنسية ، وشهدوا يقظة الروح القومية في البلاد التي غزاها نابليون ، ورأوا

عن كتب الفرق الهائل بين مستوى حالة الفلاح الفرنسي والفلاح الروسي . ويقول «بليخانوف» في كتابه القيم «المدخل الى تاريخ روسيا الاجتماعي» الذي ألفه وهو متشبع بمبدأ التصور المادي للتاريخ ، ان الانتصار الذي أحرزته القبائل المتبدية على الروسيا في اقطاع كبيف ، اضطر الجماعات الروسية أن تنسحب صوب الشمال والشمال الغربي من روسيا ، مما أدى إلى تأخر ظهور المدنية الروسية وسبب انحطاط الطبقات الراقية . ويذكر أيضاً ان للوسط الجغرافي الروسي أثراً بارزاً في التاريخ السياسي من جميع الوجوه .

ولا يمكننا ان نسلم بصحة قول أنجلس : « إن كل شيء رهن الواقع والضرورة » . فالظروف تكوّن الجو الملائم لظهور الشخصيات ، لكنها لا تخلق الأشخاص وما ينطوون عليه من خلق وفكر وخيال . ولو كان الأمر للظروف التي يسري تأثيرها على الجماعات بمعدل واحد لجاءتهم تباعاً ، وعلى درجة واحدة من الوعي والفهم ، فلو لم يظهر محمد في الحجاز يومئذٍ لما ظهر غيره . والبرهان على ذلك أن تلك البلاد عجزت عن انجاب شخصية كمحمد قبل أن يولد وقبل أن يبلغ سنّاً معلومة رغم أن ظروف المعيشة وملابسات الحياة وأحوال الجزيرة لم تصب بتغيير أو تبديل . وما من عظيم كان وليد ضرورة ساعة ظهوره ، أو استجابة لنداء الجماعات المتضورة . ولو كان وليد الضرورة القاهرة لما حورب مصلح ولا نبي ولا اضطر هو أن يحارب الجماعات التي ظهر في وسطها أو يكافحها تارةً باليد وطوراً باللسان . فيسوع صلب ، ومحمد هاجر وحارب بغية اقرار فكرة التوحيد في القلوب . وان يسوع يعبر عن الحقيقة التي اكتنفت رسالته إذ يقول : « ما جئت لأاتي سلاماً بل سيفاً . فأني جئت لأفرق الانسان ضد أبيه والابنة ضد أمها والكنة ضد حماتها » . ولو كان المجتمع العربي يشعر آنئذٍ بتعطش حقيقي إلى رسالة سماوية لما عامل محمداً معاملة تجلت فيها الغلظة والقسوة والكفر . وكيف نستطيع أن نعلل تقبل الرسالات السماوية رغم مناقضتها للمبادىء السائدة والعقائد المستقرة ورغم العراقيل التي تعترضها ، والشر الذي بلاه المبشرون بها .

جميلٌ أن نجمع في العقيدة بين الولاء للأرض والتطلع الى السماء ، ونصل في الحياة بين القلب والبطن ، ونوفق بين رغبات الروح ومتطلبات الجسد . وليس بجميل أن تحول الأرض بيننا وبين السماء وتطغى المادة على الروح . انني أؤمن بالانسان وما فيه من قوى فاعلة في سبيل الخير والجمال والحق ، وأؤمن ان الحياة سوف لا تنفك تفربله في غربال اللذة والألم كي تدنيه شيئاً فشيئاً من المحجة النصوى التي تتجلى في المحبة الشاملة . وركب الانسانية ما انفك سائراً صوب هذا الهدف رغم وعورة الطريق وطولها وكثرة الأشواك وخور العزائم .

صافيتا — سوريا الياس بقرب

المرأة في البرلمان

لم تذهب صيحات الاتحاد النسوي عبثاً . ولا انطلقت صرخات السيدات أدراج الرياح بل قرعت آذان كثيرين من ذوي الضمائر، واستجابت لها نبضات قلوب الطبقات الراقية وجاوبتها نغمات عواطفهم وتبرات رشادهم . وكان من هذه النبضات ان صحت عزيمة الأستاذين الكبيرين سعادة علوبة باشا وسعادة علي زكي العرابي باشا ان يتقدما إلى البرلمان كل منهما على حدة بمشروع قانون يخوّل المرأة المصرية حق الانتخاب . وقد كان لي الحظ أن اطلع على قسط من مشروع علوبة باشا فرأيته مُدعماً بالمنطق القاهر والحجج الدامغة فضلاً عن السندات القرآنية الناصعة الحق .

ولا ندري الآن ماذا يلاقي هذا المشروع من مناقشات أعضاء البرلمان، وبكم يهاجم من الحجج الواهية والبراهين المتصدعة . ولكننا نعلم منذ الآن إنه سيلاقي من خشونة الجنس واعتصاب النفوس المتعصبة وقذائف انتقاليد المتحجرة ما يستميل عنه إلى نقيضه من أكثرية المجلس . وقد تكون أكثرية ساحقة . ومهما كانت قليلة أو كثيرة فالأرجح ان المشروع يحبط في المرة الأولى ويصفق لمبوطه الأنانيون المستبدون المستلذون الاستعباد . على أن حبوطه لا يكون هلاكاً إلى الأبد . بل لا بدّ أن يبقى فيه رمق ، أو أنه يولد ثانية عن يد ذينك الفاضلين اللذين في مقدمة من يدفعون بالمجتمع المصري إلى الامام في سبيل رقيه ويشترك معهما آخرون ممن يتفقون معهما في هذه النزعة الاجتماعية المباركة .

على أننا نعرف منذ الآن ماذا تكون حجج المعارضين والمقاومين والمتأكدين الذين من خليقتهم محبة الاستبداد ، والمختمرين بعقيدة أن المرأة مهما ارتقت فبحكم خلقتها يجب أن تكون أمة أو هي أمة، على الرغم من منح الكتب المقدسة لها حقوقاً اجتماعية واقتصادية كحقوق الرجل .

أول حجة عند خصوم المشروع أن المرأة خُلقت بطبعها ثانوية للرجل ، ولها وظيفة

في الأسرة، تختلف عن وظيفة الرجل كل الاختلاف بل هي دونها قيمة وعبأً. وبالتالي يمتد هذا الاختلاف إلى جميع الأحوال الاجتماعية.

يقولون إن وظيفة الرجل خارج المنزل مختصة بالسعي إلى الرزق للقيام بمعيشة الأسرة. وإن وظيفة المرأة حضانة الأولاد وتربيتهم والقيام بجميع الواجبات المنزلية.

حسن. ولكن هل وظيفة المرأة هذه دون وظيفة الرجل قيمة؟ وهل تقتضي مجهوداً أقل مما تقتضيه وظيفة الرجل؟ لا لعمري. إن وظيفتها أهم جداً وأعلى قيمة وعملها أشق جداً من عمله. فلكي تقدم المرأة للمجتمع رجلاً وطنياً نشيطاً ونافعاً ومخلصاً لوطنه يجب أن تحمله جنيناً في أحشائها تسعة أشهر أولاً. ثم تضمه إلى صدرها وفي حجرها شهوراً أخرى، ثم ترعاه بضع سنين إلى أن تفتحه إلى المدرسة فالكلية. ولا تنتهي مهمتها بشأنه حتى بعد أن يصير يافعاً، بل بعد هذه السن تبقى مشغولة به عاطفة عليه مهتمة بحياته إلى أن يستقل. أضف إلى مهمة تربيته سائر الواجبات المنزلية المعروفة. هذه وظيفة المرأة إذا كان عندها ولد واحد، فما بالك اذا كان عندها بضعة أولاد؟ لا أظن أباً من الآباء من يجهل أو يتجاهل أن عمله الذي يستغرقه تجاه عمل المرأة إنما هو عمل بربري يجري على وتيرة واحدة منذ يضع لطامه إلى أن يتقاعد عنه. فتى جرى الرجل في سباق العمل أصبح النظام يعمل من تلقاء نفسه من غير أن يعنت هو فيه نفسه كثير الاعنات. لذلك يجد الرجل عنده متسعاً من الوقت للتسكع في طريق الحياة والاختلاف الى المقاهي والملاهي والمعشر الفكه وأحياناً إلى المعشر الفاسد.

فاذا كانت تلك وظيفة المرأة التي هي مهمة إعداد رجال المستقبل وبنيان المجتمع المتين أفلا يجب أن يكون لها ضلع في إدارة هذا المجتمع ولو من قبيل الرأي أو اختيار ذوي الرأي والادارة؟

* * *

وأقوى حجة يحتج بها خصوم المشروع هي أن السواد الأعظم من النساء عندنا لا يزلن أميات جاهلات، فلا يصلحن للتمثيل في البرلمان ولا للانتخاب. يمكن إعطاؤهن هذا الحق متى تعلمن ولو بعض العلم أو تعلمن القراءة والكتابة على الأقل، إذ تصبح معلوماتهن يقوّون الحياة أوسع نطاقاً منها الآن ولا سيما إذا سرن يطالعن الجرائد والمطبوعات الأولية كأخواتهن الأوربيات والأميركيات.

حسن. هذا صواب. فإذن يجب أن نُلغي برلماننا بتاتاً ونعود الى الحكم

المطلق لأن السواد الأعظم من الرجال كالسواد الأعظم من النساء أميّون جهلة لا يفهمون شيئاً من مشاكل الحياة الاجتماعية ، ومن السياسة الوطنية . وإذا كانت الأمية سبباً حتمياً لحرمان الفرد من حق الانتخاب ، فالانصاف يقضي أن يحرم جميع الأميين رجالاً ونساءً من هذا الحق على السواء ، وأن يقتصر على المتعلمين فقط من الفريقين . وحينئذٍ نرى أن عدد المنتخبين لا يفوق على عدد المنتخبات (بكسر الخاءين وفتحهما) لأنه ما من أبٍ مثقف ولو بعض الثقافة في هذا الأوان يحرم بناته حق التعلم الى حدّ ما . ولا نرى فتىً متعلماً إلاّ نرى تجاهه فتاة متعلمة . ولا مزية للرجال على النساء في المعرفة . كلا الفريقين في الثقافة والأميّة سواء .

واما أن نمنح حق الانتخاب لكل ذكر بالغ ونمنع هذا الحق عن كل أنثى على الاطلاق حتى المثقفة ، فهو من أغرب سخريات الزمان وأضحك المضحكات . أليس مستهجناً أن تقبع السيدة الجليلة هدى هانم شعراوي رئيسة الاتحاد النسوي في العالم العربي في بيتها يوم الانتخاب وان يذهب بواب دارها الى دار الانتخاب لكي يعطي صوته ؟ أو أن يذهب خادم السيدة أمينة السعيد لكي يعطي صوته وهي تحرم هذا الحق .

وإذا كان لا بد من عدم الانصاف هذا بين الفريقين فيجب على الأقل أن تعطى السيدة المتعلمة حق الانتخاب أسوةً بالأمي الجاهل وتحرم منه المرأة الأمية ريثما تتعلم . والاّ فهذا الاجحاف سبة في دستور البلاد .

أفظع مما تقدم أن يكون بين نواب الأمة أميون لا يحسنون كتابة كلمة غير كتابة امضائهم التي ماوسوها لهذا الغرض على الرغم من أن الدستور يحرم على الأمي أن يرشح نفسه للنيابة .

* * *

أما حرمان المرأة المثقفة من حق النيابة في البرلمان فيبرره خصوم المشروع بأن المرأة مقيدة بواجباتها المنزلية ، فلا يجوز أن تترك هذه الواجبات لكي تخوض غمار السياسة وتحضر الجلسات وتناقش ، وأخيراً توافق أو لا توافق . وإذا كانت الواجبات المنزلية تمنع نيابة المرأة فواجبات الرجل المعاشية تمنعها أيضاً . على كلا الفريقين واجبات فما يمنعها هذا الحق يمنعه ؟

والعادة أن يكون النواب من الأشخاص الموسرين القليلي الواجبات الشخصية ولهم متسع من الوقت لحضور الجلسات البرلمانية . والمجلس لا ينعقد إلاّ مساء بعد انصراف الناس من أعمالهم . والسيدة التي يساعدها خدمها في ادارة المنزل لها أيضاً متسع من الوقت

في ذلك المساء كما أن لها وقتاً للزيارات والملاهي . وبالطبع لا ترهق نفسها الا المرأة الموسرة التي عندها خدمٌ وبرهات كثيرة من الوقت لحضور الجلسات فضلاً عن المطالعة وتدوين المذكرات ونحو ذلك .

وخلاصة القول أننا لا نرى أن انشغال المرأة في واجباتها النيابية في البرلمان يحول دون قيامها بواجباتها المنزلية ، كما أن انشغال الرجل في البرلمان لا يعرقل أعماله . وهذا الاعتراض واهٍ سخيف كغيره من الاعتراضات المتقدمة .

وقد انتخبت السيدات في برلمانات أوروبا وأميركا وكانت لهنَّ آراء صائبة ونفوذاً فما قصرنَ في واجباتهنَّ المنزلية بسبب إنشغالهنَّ في مجالسهنَّ النيابية .

ولجانب من الرجال عقيدة فاسدة يستنكرون بها انشغال المرأة في السياسة ويستهجنون وجودها في المجالس النيابية ونحوها ، وهي أن المرأة أضعف عقلاً من الرجل إلى غير هذا من مزاعم انحطاط عقلية النساء . وهي عقيدة سخيفة لا يخجل مغرورو الرجال وأغبياؤهم أن يجاهروا بها وإلى جانبهم زوجات راقيات لائقات بهم وهم يحرصون على كرامتهنَّ .

يجعلون هذه الحجة في مقدمة الحجج عند نقاشهم في هذا الموضوع على الرغم من أن وقائع الحال تخرس أفواههم إذا كانوا يعقلون . فقد نزلت المرأة في جميع البلاد المتمدنة إلى مضمار العمل ونافست الرجل فيه كما نافسته في ميدان تحصيل العلم ، حتى عندنا نافست الطالبات في جميع الكليات الطلبة ، وفي كثير من الامتحانات تفوقنَ عليهم . فما ظهر في هذا الجنس اللطيف قصور عقلي بتاتاً . والتحقيقات الفسيولوجية والدماغية خاصَّةً برهنت على أن المرأة والرجل متساويان في القوى العقلية . وليس لفريق مزية أو نفر على الفريق الآخر . ونرى في ميدان الأدب الآن أقلام كاتباتٍ في كثير من المجلات تبزُّ أحياناً أقلام الكتَّاب المنعوتين بالمقتدرين .

ولعلَّ بعض الأفاضل من الرجال يقولون إننا إذا منحنا هذا الحق للسيدات فلا نعود نستطيع ان « نكيفهنَّ » . وهذا قول سخيف لا يصدق إلاَّ على بعض النساء المتدللات المغرورات ، وهؤلاء لا يمكن أن يرتقينَ إلى منصة النيابة البرلمانية . ولا تستطيعون أيها الأفاضل أن « تكيفوا » هؤلاء « المدللات » سواء أكنَّ في مجلس النواب أو في مجالس الأصحاب . فهنَّ نائبات لكم على كل حال رضيتم أم لم ترضوا .

نقولا الحداد

أمس واليوم

مجلة مصر الزراعية

يجود علينا الغرب أحياناً برجال يخلصون للشرق ويتدبرون مشكلاته ويتقصون أسبابها ويشيرون بما يرونه من علاج . ومن أولئك المستشرقين الانجليزي السير الأستاذ كراوتشلي A. E. Crouchley كان يعمل أستاذاً في كلية التجارة بجامعة فؤاد الأول ووضع من نحو أعوام كتاباً نفيساً باللغة الانجليزية عن « التقدم الاقتصادي لمصر الحديثة »[1] في نحو ثلاث مئة صفحة .

وقد رأينا أن ننقل بضعة فصول من هذا الكتاب ونعلق على ما أورده المؤلف حسبما نرتئيه ، ونضيف إليه ما عرض لنا في بحوث حديثة العهد ، لأن هذا المبحث من خير ما كتب عن اقتصاد مصر الحديثة .

* * *

التاريخ موصول الحلقات ، مسلسل الوقائع والأحداث ، لا يقف ولا يطيء . اليوم هو ابن الأمس وهو أبو الغد . ورغم أن مهمة المؤرخ — إذا تحرينا الدقة — تتعلق بالماضي فقد يغتفر القارىء لنا إذا نحن استشففنا من أحداث الماضي الخطوط الرئيسة للمستقبل ، وهي المسائل التي ستعرض لنا لا محالة في القريب الداني أو البعيد التالي . ولعله يعذرنا إذا بحثنا هذه المسائل على ضوء تقدم مصر الاقتصادي الحديث .

وأول ما يواجهنا ، مشكلة السكان . فقد بلغ عدد السكان من مليونين إلى نحو ستة عشر مليوناً (المترجم — يبلغ تعداد مصر الآن نحو ١٩ مليوناً) في قرن وثلث قرن ، وهم آخذون في الزيادة بسرعة فائقة . وكثيراً ما يعربون عن الخوف من اكتظاظ البلاد بالسكان ، سواء في الوقت الحالي أو في الغد القريب مما قد يفضي إلى زيادة ضغط السكان على الموارد الحالية للبلاد ، وما يتبع ذلك من خفض مستوى المعيشة .

غير أننا ينبغي أن نذكر أن مصر كانت تعاني نقص السكان لما كان عدد قطانها يبلغ مليونين ، وإننا لم نستطع الزعم بأن هذا النقص قد عولج إلا في القرن الحالي . ولا يمكن

(1) The Economic Development of Modern Egypt.

القول إن مصر مزدحمة البرم بالسكان ، فهناك مساحات كبيرة من الأراضي حديثة العهد بالاستصلاح في أعمال الدلتا وقد تقدمها رعلاً بسبب نقص الأيدي الزراعية العاملة . ففي منطقة شرين تبلغ كثافة السكان ٩٥ نسمة في كل كيلومتر مربع ، وفي كفر الشيخ تبلغ ١١٣ نسمة ، وفي كفر الدوار تبلغ ١٣٠ نسمة . وتبلغ كثافتهم من ناحية أخرى في قسمين السكرم ٨١١ ، وفي صنوان ٧٦٨ ، وفي ميت غمر ٧٠٦ . ويبدو أن في هذه المناطق عدداً زائداً على الحاجة من السكان . والمشكلة الرئيسية هي مشكلة سوء توزيعهم . غير أن الفلاح محافظ بطبعه ومن أعسر الأمور إقناعه بتغيير مكان سكناه ولا سيما أهل الصعيد الذين يعيشون في مصر العليا .

وليس ثمة بوادر تدل على احتمال ازدحام البلاد بالسكان في الغد القريب لأن الأراضي الصالحة للزراعة في مصر يمكن زيادتها بمقدار ٥٠ في المئة إذا أنفقت بضعة ملايين من الجنيهات على الري والصرف

وبديهي إننا سنصل في النهاية الى المرحلة التي تصبح فيها زيادة مساحة الأراضي الزراعية صعبة أو مستحيلة . وكلما زدنا الضغط عليها أدى ذلك إلى نقص الغلّة في مناطق واسعة . وإذا ظلّ عدد السكان ينمو طوال هذه المدة ، فقد ينشب أمام أعيننا خطر زيادة ضغط السكان على موارد البلاد . بيد أننا نستطيع أن نأمل ، قبل بلوغ تلك المرحلة أن يفضي التعليم العام وتوفير الوسائل الصحية ، والتأثير النفسي للقرى النموذجية ، والعوامل ذات التأثير التي تستخدم الآن (كالسيارات واللاسلكي والجمعيات التعاونية ... الخ) أن تفضي جميع هذه العوامل إلى غرس الرغبة في الفلاح في تحسين حالته الصحية والاجتماعية ورفع المستوى العام لمعيشة في القرى ، فينجو الجيل الجديد مشبعاً بآراء أوسع أفقاً من آرائنا ، وأقوى عزيمة من أسلافه ، فيرى الفرد — كما يحدث الآن في عدد كبير من البلدان الأخرى — أن يخفّض عدد أفراد أسرته رغبةً في تحسين حالة معيشة أطفاله .

وتتقدم الصناعة — في هذه الحالة — شأن كبير . ولا يزعم أحد أن تصبح مصر دولة صناعية تتخلى عن الزراعة كليّة . ومن المبالغة أن نحسب أن الصناعة تستطيع توفير عمل لقدر لا حدّ له من السكان المتزايدي العدد . وتستطيع الصناعة في الآونة الحاضرة أن تستوعب بضعة آلاف آخرين من العمال من السكان الذين قد يصل تعدادهم قريباً إلى عشرين مليوناً . غير أن الأجور المرتفعة التي يتقاضاها العمال في الصناعة من شأنها أن ترفع مستوى المعيشة في الريف إمّا مباشرة : بأن ترفع المستوى ارتفاعاً جليّاً بالنسبة لما كان عليه قبلاً ، أو غير مباشرة : بأن تزداد هجرة الريفيين إلى المدن . وسيطّرد ازدهار الصناعة بدوره

لان تحسين مستوى المعيشة في المناطق الريفية سيؤدي حتماً الى زيادة حاجات الريفيين وكلما تحضر الشعب كثرت مطالبه وزادت حاجاته .

غير أننا لا نستطيع أن نحرز حدوث تقدم فعلي ما لم يحقق الرخاء الزراعي ، ويجمع جميع المعنيين ، وتجمع الإحصاءات كذلك ، على أن الاراضي التي تروى ريا دائما رغم أنها تنتج أكثر من محصول واحد في العام ، تميل سريعاً إلى فقدان خصوبتها . وتحتاج تبعاً لذلك إلى مقادير مطردة الزيادة من الاسمدة والمحسنات الكيميائية . وحتى بعد التوسل بهذا العلاج ، يصبح معدل المحصول أقل بكثير من محصول الاراضي التي تروى بنظام ري الحياض . ويحتمل أن تكتشف في المستقبل وسيلة تجمع بين الخصوبة التي تتأتى من تلقاء ذاتها وفقاً لنظام الحياض ، وبين زيادة عدد المحاصيل التي تنتج عن نظام الري بالترع (أي وسيلة تجمع بين خير ما في نظامي الري الدائم والحوضي) . ومن الضرورات الأولى لتحقيق هذا ، اتباع نظام الصرف الملائم . أما الضرورة الثانية فهي إتاحة فرصة كافية للتربة لتستريح فيها .

وقد يأتي زمن يوضع فيه تشريع ينص على الفترات التي تستريح فيها التربة في هذه المناطق . وقد يكون من الصالح إلى جانب ذلك أن تغطى الاراضي التي « تستحم » من عناء الزراعة بماء الفيضان مرة في كل سنتين أو ثلاث سنين لكي تجدد التربة عهدها بانتظام وتستعيد خصوبتها ومقدرتها الإنتاجية .

ويبدو أن أيسر سبل الإصلاح اتباع ما يلي :

أولاً — يجري العمل مبدئياً لتحويل الاراضي الخاضعة لنظام الحياض في مصر العليا إلى أراض تروى ريًّا دائماً . وسيؤدي ذلك إلى إضافة نحو مليون فدان أخرى إلى الاراضي التي تروى ريًّا صيفيًّا وإلى زيادة مماثلة في مساحة الاراضي التي يمكن زرعها قطناً .

ثانياً — ينبغي درس مسألة إنشاء خزانات كبيرة أخرى في أعالي النيل . ويمكن القول إن ضبط النيل ، لأنه لم يتم حتى الآن ، لم يبدأ بعد . وما دامت مقادير كبيرة من الماء تضيع هباء في كل خريف مع الفيضان ، وجب أن نقول إن ضبط النيل غير كامل . وقد وضعت فعلاً بعض المشروعات لإنشاء سلسلة كاملة من الخزانات عند منابع النيل ، ويرجى أن تفضي هذه المشروعات عقب تحقيقها الى التحكم في هذا النهر الجبار المارد ، ووضعه تحت إشراف مهندس الري وإمرته .

ويجوز لنا مورد مطرد الزيادة من الماء لري وإصلاح ما يربى على مليون فدان من الاراضي في الوجه القبلي ريًّا سنويًّا ، وإصلاح نيف ومليوني فدان من الأراضي البائرة

في الوجه البحري ، وزيادة مساحة الأراضي المزروعة أرزاً وتحسين وسائل الري في الوجه البحري وتوفير المياه اللازم للتكبير بزراعة محصول الذرة النيلية الكبير . ويقدرون أن مقدار المياه الذي يختزنه خزانا أسوان وجبل الأولياء في الوقت الحالي لا يتجاوز نصف الكمية التي سنحتاج إليها عند تنفيذ مشروعات الإصلاح .

وتنقسم الآن أعمال تحويل الأراضي الى الري الدائم واصلاحها في الوجه القبلي تقدماً حثيثاً . أما في الدلتا فان نشر وسائل الصرف من جهة ، وزيادة موارد الماء الصيفي من جهة أخرى ، هما من الضروريات الأولية لمباشرة أعمال اصلاح الأراضي المزمع تنفيذها . غير أن كل تقدم آخر يعرقله قلة الأيدي العاملة — وهو أمر يبدو عجباً في بلد مكتظ هكذا بالسكان . ومن العجب ، ولا سيما في الوجه القبلي ، إقناع الفلاح بالهجرة علاوة على أن مما يعرقل الهجرة رأس المال الكبير الذي يمس الحاجة اليه في كثير من الأحوال . ولذلك ، قد يبطىء التقدم في الوقت الحالي إلى أن يزداد عدد السكان في تلك المناطق ويتوفر رأس المال اللازم .

وينبغي أن نلاحظ أن تحويل الأراضي التي تروى بالحياض الى الري الدائم لا يصادف تأييداً إجماعيًّا ، لأن الخبراء الزراعيين يقولون إن خصوبة التربة تميل الى الهبوط ، وإن معدّل الإنتاج يميل إلى النقص إذا عوملت الأراضي الزراعية بهذه الكيفية . وهنا تبدو مشكلات الصرف ، وتموينا مقادير متزايدة من الأسمدة الصناعية الغالية الثمن . والواقع أن النظام الحالي يؤدي إلى ضياع قدر كبير من الانتاج ، فبدلاً من أن يستخدم طمي النيل الخصيب في تجديد التربة سنويًّا ، يضيع هباء ويلقى به النهر إلى البحر مما يضطرنا إلى تعويض هذا النقص باستخدام الأسمدة الكيمائية . والنظام المنطقي الصحيح هو أن نعمل على الجمع بين الري الصيفي والفيضان الشتوي ويمكن تحقيق هذا في مساحات كبيرة من الأراضي التي لا تزال تروى حياضيًّا باستخدام مضخات إرتوازية بدلاً من تحويل الأراضي من الري بالحياض إلى الري الدائم . وقد يتبيّن لنا مستقبلاً أن من الخير استخدام نظام الفيضان الموسمي في المناطق التي حولت فعلاً .

وعلى كل حال ، فإن النظام الحالي ، وضياع ماء الفيضان المحمّل بالطمي في البحر المتوسط هو تبذير وإسراف جليان لا مدفعة لهما وإفراط في مواد ثمينة . فإن ثلثي ما يجري في مجرى النيل من الماء ، يصبّ في البحر المتوسط سنويًّا ويحدث هذا في أشهر الفيضان أي من شهر أغسطس إلى شهر ديسمبر عندما يستمدّ النهر تسعين في المئة من مائه من نهري عطبرة والنيل الأزرق ، ويكون الماء محملاً بحمل طمي من الغرين من جبال اثيوبيا . وكان جزء

كبير من هذا الماء يحوّل إلى الأحواض (وفقاً لنظام الري بالحياض) حيث يترسب الطمي فيها قبل أن يواصل الماء سيره إلى البحر . أما اليوم ، فإن عيون جسر السد والسدود تفتح على مصراعيها إبّان فترة الفيضان حتى لا يفوق الطمي حملهُ أو أن يرسب في الخزانات ، فيندفع الماء كله بسرعة دقّاقة رأساً إلى البحر حاملاً معه نسبة عالية من التربة البكر ، تمكن سفاء البحر المتوسط وتحيل زرقته إلى لون تربي قاتم لمسافة تسعة أميال ، ثم يضيع هذا الغرين إلى غير رجعة . ويقدرون أن الطمي الذي يفقد في كل عام لو وزع توزيعاً عادلاً على ثمانية آلاف فدان ، لبلغ ارتفاعه مترا .

ولو أنّ هذا الراسب الثمين اختزن في البحيرات المنخفضة على طول الساحل الشمالي للدلتا بدلاً من قذفه الى البحر المتوسط لأمكن مربحاً — وبدون كبير نفقة — تحويل هذه المساحات الشاسعة إلى أراض خصبة شاطئة للزراعة

(المترجم : تبلغ مساحة البحيرات الشمالية التي يشير اليها الكاتب حسبما جاء في تقويم الحكومة المصرية لعام ١٩٣٨ ، ٦٤١٫٠٠٠ فدان تفصيلها كما يلي :

بحيرة مريوط	٥٩٫٠٠٠ فدان
» ادكو	٣٥٫٠٠٠ »
» البرلس	١٤٠٫٠٠٠ »
» المنزلة	٤٠٧٫٠٠٠ »
جملة	٦٤١٫٠٠٠ فدان

وكل ما يعوزنا لاصلاح هذه البحيرات هو تحويل ماء الفيضان بوساطة سلسلة من القنوات ، إلى البحيرات ، ثم ترك الماء يشق طريقه الى البحر بنفسه عن طريق الفجوات الشمالية . وسيفضي إبطاء مجرى النهر إلى ترسيب الطمي في قعر البحيرات وسرعان ما يتألف طبقات عميقة . وكلما ارتفع مستوى الأرض بما يرسب عليها من الغرين ، أمكن تحويل مجرى الفيضان الى مناطق أخرى . ولا يزال في الوجه البحري أراض واسعة منخفضة بطول ساحل البحر المتوسط يمكن إصلاحها . غير أنه من الضروري الاسراع في تنفيذ هذه المشروعات في أقرب وقت ممكن . ويقدرون أن قيمة الغرين الذي يضيع الآن تبلغ مليون جنيه سنويّا . وقد بلغت الخسارة الآن حدّاً أعلى بسبب تحويل أراضي الحياض إلى الري المستديم .

وبتنفيذ مشروعات الري الجديدة مستقبلاً في السودان وأثيوبيا وأواسط أفريقيا ،

يمكن التدرج في ضبط النيل. والهدف الأسمى الذي يهدف اليه مهندس الري هو الوفر من عدم ضياع نقطة واحدة من ماء النيل. وسيأتي الوقت الذي فيه لا يقذف الى البحر سوى ماء الصرف المحمل بالأملاح. ولكن قبل أن يجيء هذا الزمن، ينبغي أن تلتفت مصر إلى تدبر هذا المورد المؤكد من الثروة التي تضيع اليوم هدراً.

* * *

ولعلّ مشكلة الصرف أدهى الى الاسراع في علاجها من سواها، فقد أدركت الحكومة أن من الواجب عليها في هذا الصدد توفير مصارف عميقة رئيسة مجهزة بمضخات قوية لتجعل مستوى ماء التربة منخفضاً. غير أن هذه المصارف الرئيسة، لكي تصبح ذات تأثير فعال، تحتاج إلى أن تكون متصلة بعدد لا حصر له من المصارف الثانوية تغطي المنطقة التي يراد صرف الماء منها بأسرها. وإن توفير هذه المصارف مهمة كبيرة تلقى على عاتق الحكومة لأنها لا تملك الهيئة التي تشرف عليها أو الوسائل التي تعالجها بها، وليس من وسيلة لارغام أصحاب الأملاك أنفسهم على توفير المصارف في أراضيهم. ولن يكون من اليسير تنفيذ هذا. فنظام الصرف، ليكون فعالاً، ينبغي أن ينظم في رقعة واحدة واسعة بمقتضى نظام تعاوني يكون لكل فلاح نصيب فيه. غير أن عدداً كبيراً منهم لا يملك المال اللازم لتحقيق هذا المشروع الكبير النفقة. فضلاً عن أن توفير المصارف المكشوفة (كالترع) مضيعة للأرض التي تغطيها لأن عشرة في المئة من الأراضي المزروعة تستغل في المصارف المكشوفة. أما صغار الملاك، فان حفر مصارف مكشوفة، مهما تكن صغيرة، كافٍ لأن يغل أرضهم بأسرها. وحل هذه المشكلة قد يكون بتوفير مصارف مغطاة، وهي أنابيب تمدّ تحت الأرض على عمق مناسب بنظام منحدر قليلاً لتستدرج ماء التربة إلى قنوات الصرف. ولهذا النظام مزايا جمة؛ فتى تمّ تحقيق هذا المشروع، لن تحتاج الأنابيب إلى نفقات أخرى لصونها، ويصبح الصرف مؤكداً، ولا يضيع شيء من الأرض كما هي الحال في المصارف المكشوفة.

* * *

ويبدو أن الحكومة ليست على استعداد الآن للشروع في تنفيذ هذا المشروع الوثّاب. غير انه من الواضح أن المشروع لا يمكن تحقيقه تحقيقاً مرضيًا إلاّ إذا أمكن تنظيمه تنظيماً مركزيًا. وعلى هذا، فالحل النهائي هو أن تؤلف الحكومة الهيئة اللازمة للإشراف عليه، على أن تقتسم الحكومة والزراع نفقاته عن طريق زيادة الضرائب الزراعية مثلاً.

القطن المصري

ويبدو أنّ هناك شيئاً من الريب في أن يظل القطن سنوات قادمة محور الاقتصاد المصري . فليس في مصر محصول سواه يمكن زراعته في مساحات واسعة وربحه يقادير كبيرة تدرّ على الفلاح المصري ربحاً يوازي ربحه من بيع محصول القطن . وإذا كانت الزراعة القطنية قد تقدمت في مصر ، فسبب ذلك راجع إلى ما برهنت على نجاح شهده محمد علي ، وهو الذي أدخل هذه الزراعة في مصر ، ثم احتفّ به الفلاح نفسه . وإن أيّ نزول كبير في سعر القطن قد يفضي — وكثيراً ما أفضى — إلى عدول بعض الفلاحين عن زراعته وقتاً واستبداله بمحصولات أخرى غير أن الأسعار ما تكاد ترتفع حتى يقبل الفلاح من جديد على احتلبات القطن .

ويحتمل كذلك ان تواصل مصر إمداد نسبة كبيرة من محصولها إلى الخارج وقد أفضى تقدم صناعة الغزل والنسج في مصر إلى حجز مقادير مطردة الزيادة في هذه البلاد للاستهلاك المحلي . ومصر تستهلك في الآونة الحالية خمسة في المئة من المحصول لاستخدامه في صناعة النسج المحلية . ويوازي انتاج المنسوجات القطنية المحلية نحو ثلث ما تحتاج البلاد إليه منها . فاذا أتى وقت استطاعت فيه مصر أن تنسج كل ما تحتاج إليه من المنسوجات محليّاً ، فلن تستهلك سوى خمسة عشر في المئة من الانتاج القطني الحالي . وإذا زادت غلّة القطن مستقبلاً ، كما هو متوقع ، فإن النسبة ستنخفض عن هذا التقدير .

والواقع أن شطراً كبيراً من الحاجة المحلية ينصبّ على السلع القطنية الرخيصة وكان يمكن مواجهة هذه الحاجة باستخدام القطن ذي التيلة القصيرة كالقطن الهندي مثلاً . ولكن الحكومة تحظر الآن استيراد القطن من الخارج ، والنتيجة المباشرة لهذه الحالة هي أن تعمد المصانع المحلية إلى غزل القطن المصري الجيّد لاستخدامه في أغراض ليست كبيرة الشأن . ويبدو أن من مصلحة الاقتصاد المصري عامة الترخيص باستيراد قطن ذي تيلة رخيصة لينسج في المصانع المصرية مما يؤدي إلى خفض أسعار السلع القطنية للطبقات الفقيرة وإلى بيع القطن المصري ذي الرتبة العالية بأسعار مرتفعة في الخارج .

ومن الضروري لمصر كذلك أن تعرف بالتحديد أي اتجاه في التقدّم القطني يحقق لها خير مصالحها مستقبلاً . فمنذ نشوب الحرب (المترجم — حرب ١٩١٤ — ١٩١٨) وضعت سياسة لإجراء التحاوب تعدّل كلما تحوّل اتجاه السوق . فحدث إبان الحرب مباشرةً أن زاد الطلب زيادة غير عادية على القطن طويل التيلة كالسكلاريدس وزاد سعره

على سعر القطن الأميركي كثيراً . وكان الفلاح يتبين أن من الخير له أن يزرع مساحات هامشية من أرضه بالسكلاريدس رغم أن معدّل إنتاج الفدان لم يكن كبيراً جداً . وعلى كل حال ، اتجه الرأي منذ ذلك الحين إلى زراعة أنواع رخيصة من القطن للاغراض التي كان السكلاريدس يستخدم فيها قبلاً ، وانخفض سعر هذا القطن لأن الأسواق محدودة نوعاً . وإذا دعت الحاجة مستقبلاً إلى زراعة هذا الصنف الممتاز من القطن ، فلا يُظنّ أن تستطيع مصر مواجهتها سريعاً .

والسوق الآن محدودة في وجه هذه الأصناف ، غير ان هناك سوقاً غير محدودة للقطن المعروف باسم uppers . والواقع ان القطن المصريّ من هذا النوع أجود من القطن الأميركي حتى ان الغزالين يؤثرون القطن المصري على الأميركي . ولكن نظراً لأن سوق القطن الأميركي توازي أضعاف أضعاف ما تستطيع مصر أن تنتجه من القطن فهناك احتمال بأن يباع أكبر قدر من القطن المصري . والعقبة الوحيدة هي مسألة السعر . فإذا بيع القطن المصري بسعر القطن الأميركي كان معنى هذا أن تباع سلعة جيدة بثمن سلعة أقلّ جودة . ومن الناحية الأخرى لن يكون من المحتمل بيع محصول مطرد الوفرة بثمن مرتفع ما لم يكن هناك طلب عليه . فينبغي أن تهدف سياسة مصر القطنية مستقبلاً إلى العمل على زيادة الطلب على القطن المصري وعلى جعل البلاد الأخرى تفضله عن الأنواع الأخرى .

أما في ما يختص بالأسعار التي ينبغي أن يباع القطن المصريّ بها ، فإنها تتوقف على السعر العالمي الذي يتحكم فيه الأميركيون إلى حدّ كبير . وكل ارتفاع أو نزول في الأسعار في أميركا يصحبه تأثير مماثل في مصر . وقد يتفاوت السعران قليلاً ، بيد أن المعروف عادة أن مصر عاجزة عن أن تؤثر تأثيراً حاسماً في سعر القطن في العالم . والأمر الوحيد الذي تتحكم فيه مصر إلى حدّ ما ، هو أفضلية القطن المصري على القطن الأميركي . وتستطيع مصر إذ تعمل جاهدة على تعريف الغزّالين والعملاء التجاريين بجودة القطن المصريّ مما يؤدي بدوره إلى زيادة الطلب عليه ، أن تزيد الدخل الاجمالي الذي تظفر به من بيع المحصول . وليس في الطاقة تحقيق هذا إلاّ بالدعاوة المنظمة وإنفاق بذر المال على الاعلان عن القطن المصري . ولسوف تُغطّى نفقات الإعلان عدة مرات بما تربحه مصر من بيع قطنها .

ولهذا الأمر أهمية كبيرة لأن الموقف الحالي في ما يختص بإنتاج العالم من القطن غير مستقرّ فمنذ عام ١٩٣٢ احتفظ سعر القطن بمستوى مرتفع بسبب النقص الكبير في انتاج القطن الأميركي . وعكفت الدول الأخرى على تحسين هذه الفرصة فزادت إنتاج القطن بنسبة كبيرة حتى تضاعف الانتاج فيها منذ عام ١٩٣٢ . ولا يتوقع أن تستمر هذه الحالة بدون تغيير

والإجراء البديهي هو عقد مؤتمر عالمي للدول منتجة القطن غير أن زيادة المساحة المزروعة قطناً والمصالح المتباينة للدول التي تزرعه تجعلان من العسير جداً إدراك اتفاق عام . وإن تركيز السيطرة على الأسواق في يد أميركا ستتبعه فترة يمكن أن يزيد الانتاج فيها على الاستهلاك ويفضي هذا الى نزول عام في الأسعار. وإذا تركت السوق حرة فإن السعر سيحدد نفسه بنفسه ، غير أن هذا سيكون له ضحايا . أما المناطق التي تنتج القطن على الهامش (أي أنه ليس المحصول الرئيسي لها) فستضطر إلى العدول عن انتاجه بسبب نزول أسعاره ولا ريب في أن بعض البلدان يستطيع أن يتحول إلى زراعة محصولات أخرى . أما مصر ، فإنها ستتأثر بلا ريب بنزول أسعار محصولها الرئيسي ، بل يحتمل أن تتجه النية الى زراعة محصولات أخرى بدلاً منه . غير أن المزايا الطبيعية العظيمة التي تساعد مصر على انتاج القطن قد تحفزها على العودة الى زرع القطن حالما يعود السعر العالمي الى مستوى اقتصادي مستقر لأن القطن هو المحصول الذي يدر على زراعه أكبر دخل فضلاً عن أن انتاج مقادير كبيرة منه وقلة نفقات الانتاج (باستثناء ايجارات الأراضي ويحتمل أن تنزل قيم الايجارات بسبب هذه الأحوال الجديدة) سيجعلان لمصر مقاماً ملحوظاً كبلد منتج للقطن .

ويعود إقبال مصر على زراعة القطن الى سببين رئيسيين أولهما ، كما أسلفنا ، جودته وثانيهما : انتاجه الوفير .

وعلى الرغم من التدهور الذي حدث في مستهل هذا القرن ما فتئ متوسط انتاج الفدان من القطن في مصر يبلغ نحو ثلاثة أضعاف متوسط انتاج الفدان في أميركا .

وينبغي أن يهدف الفلاح والحكومة الى زيادة المزايا التي تتمتع بها مصر : وذلك بزيادة انتاج الفدان وتحسين أنواع القطن . وإذا تسنى إتمام ذلك فليس ثمة ما يحول دون ارتفاع انتاج القطن إلى ١٥ مليون قنطار أو أكثر .

وليس معنى هذا أن تزرع مصر القطن دون سواه من المحصولات الأخرى ، بل إن الحاجة الشديدة لتدعو — على النقيض من ذلك — إلى أن تسعى مصر سعياً حثيثاً إلى تعزيز أساس الرخاء الاقتصادي بإدخال محصولات جديدة ، والتوسع بقدر الطاقة في زراعة ما يتضح أنه وفير الربح . ولن تقتصر جدوى ذلك على توفير موارد ثروة إضافية كبيرة القدر وحسب ، بل ستساعد على الاقلال بقدر المستطاع من التقلب الاقتصادي الذي سيحدث لامحالة ما دامت ثروة مصر تتوقف على محصول واحد .

وديع فلسطين

المجهر الكهربي

وصفت المجهر الكهربي ، وصفاً مقتضباً وذلك في نبذة بعنوان « ثمرات الحرب (الأخيرة) في العلوم والفنون » نشرت في باب الأخبار العلمية بمقتطف يناير سنة ١٩٤٥ ، ثم ضمن مقال آخر تحت عنوان (أحدث المكتشفات التي أسفرت عنها الحرب الماضية) نشر في مقتطف مارس سنة ١٩٤٦ ، ثم في غير ذينك الجزءين — فجاءتني عقب ذلك عدة رسائل من فئة من القراء والمشتركين الجدد ، تطلب إليَّ كتابة مقال مسهب ، على ذلك الجهاز العجيب ، مع توخي تبسيط الموضوع ما أمكن ، فوعدتهم بإجابة رغبتهم عندما تسنح الفرصة ، وهأنذا موفٍ بوعدي لهم فيما يلي : —

هو جهاز تم اختراعه سنة ١٩٤٠ واشتهر في ذلك الحين بأنه أعظم مستنبطات القرن العشرين . بيد أن رائع منافعه العامة والخاصة ، وكذا ثماره العلمية البالغة المدهشة التي سوف يجنيها العالم في مستقبل أيامه ، وهي التي لم تقع على الجمهور الا حديثاً ، تحدونا على مواصلة قرائنا بما أسفر عنه هذا الاختراع من المنافع الباهرة واليك البيان : —

لا مراء في القول ان هذا الميكروسكوب قد هشّ طريقه في عشرات الميادين ، لخير البشرية ، فخليقٌ بنا أن نعترف مع التحفظ بأنه لم يَفُقْهُ في خطر شأنه في التاريخ الا القليل من المخترعات . ولنضرب لك الأمثلة الآتية وهي تشمل أشياء شتى مما تقع عليه أبصارنا في جميع أحوالنا . ولنبدأ بملابسنا أولاً وهي من ألزم لوازمنا ،

فكل منا يكره مثلاً انتفاخ بنطلونه عند موقع ركبتيه منه وذلك في جلوسه وعند سيره ، وكانت هذه المعضلة مما حلّتها المجاهر الكهربي . ذلك لأنه أقوى من سائر المجاهر البصرية بدرجة تتفاوت بين خمسين مرة ومائة مرة . وهذا من شأنه تسهيل الاطلاع بمهمة خص الغزل الذي تنسج منه المنسوجات ، ثم تحليله تحليلاً مدققاً ودراسته دراسة محكمة بنية الوقوف على مبلغ تأثره بالمياه والدهون والحوامض ، بل سائر المواد التي تستهدف

لها المنسوجات . ومن ثمة تحم اختراع أنواع فائقة من الصموغ النباتية إمتنعت التوصل بها الى علاج الغزل لتكسب المنسوجات التي تحاك منه الدرجة القصوى لمقاومة انكماشها وتشويه شكلها . ومن هذا القبيل أنّ عالماً من أهل متشيغان تدرّع بهذا الميكروسكوب الفاخر الى استكشاف حقائق كثيرة خاصة بالأسنان البشرية ، اذ جاء بأجزاء دقيقة من سنّ طاحنة ووضعها تحت المجهار الكهربي الضخم النفيس الذي يبلغ ارتفاعه سبع اقدام وثقله ١٣٠٠ رطل انجليزي وثمنه ١٣٠٠ دولار فأبصر العجب العجاب . إذ أيقن أنه يكبّر حجم المرئيات مائة ألف مرّة . فاستطاع العالم بذلك المجهار البديع التقاط صور فوتوغرافية للقنوات الخيطية الدقيقة التي تتخلل أضراس كل امرئ .

ومن أغرب الأمور أنه قد تبيّن له أن طول هاتيك القنوات يقرب من خمسين ميلاً في الضرس الواحد ، وأن متوسط مايحويه من القنوات المشار اليها هو ٨٠٠٠٠٠ قناة .

ونعني بالعالم الأمريكي الموماً اليه ، الدكتور ث . هـ . جرولد Dr. C. H. Gerould المعروف في مدينة ميدلند بولاية متشيغان ، وهو مهندس المباحث العلمية في شركة داو الكيميائية ، وفي اعتقاده إمكان الحصول على نتائج مدهشة في منع نقد الأسنان ووقايتها من التلف ، عندما يدخل المجهار الكهربي في ميدان طب الأسنان .

وقد أصبح ميسوراً للأطباء معرفة المصدر الرهيب للأنفلونزا . وذلك لأول مرة في التاريخ ، بأنّ التمكن من قياسه ومشاهدة هيكله . وهو المصدر الذي بلغ من دقته أن قدراً طفيفاً جداً منه يكفي لحقن خمسمائة فأر وقتلها بحقنة منه لا يزيد حجمها على النقطة التي ينتهي بها هذه الجملة . وما يرحنا نذكر وباء الانفلونزا المروع الذي اجتاح كثيراً من آفاق العالم منذ أكثر قليلاً من ربع قرن ، حيث قضى على ملايين من الناس ، وكيف كان العلماء حينئذٍ يعزون ذلك الوباء الى جرثومة صغيرة عصوية الشكل تكمن في أنوف المصابين وحلوقهم . ثم اختراع العلماء لقاحاً لعلاج ذلك الداء . ولم يكونوا مخطئين في كشف مصدر المرض ، ولكنهم لم يدركوا صغر حجمه ، ذلك لأن الميكروسكوب البصري المعروف يكبر قطر الشيء المرئي ٢٠٠٠ مرة . ومن ثمّ تعذّرت عليهم معرفة المصدر الحقيقي للعدوى لتناهي دقته تناهياً جعل الملايا التي تكبّره ٢٠٠٠ ق

به، اطلعي عليه وتحذيه حذو وسائلهم الكشافة. فأدى الأمر إلى تضليل الأطباء عند قيامهم بصنع المفتاح الذي أعدوه لذلك القصد. إذ كانت المادة التي استعملوها في تحضيره يظنونها كلها من الڤيروس [1] على حين أنها لم تكن كذلك. بل كان عُشرها فحسب منه نفسه وسائرها من الخلايا الكبرى. أما الآن فإن إدراكهم لحجم الڤيروس وشكله وتأثيره في المصاب، (كما تتبين بالمجهار الكهربي) سيعبِّد الطريق للقضاء الأخير على أوبئة الانفلونزا المستعصية المنتشرة في العالم.

ويكاد يستحيل على العقل البشري أن يتصور الآن مبلغ ضعول المجهار الكهربي في مجال تكبير المنظورات. وحسبنا أن نقول إنه يضخم الابرة المعتادة فيجعلها مثل حجم نصب واشنطن [2] ويكبر الجرثومة حتى تبلغ حجم الوسادة. ويضخم كُريَّة الدم فتصير كحجم مائدة الكتابة.

وبينما يستطيع المجهار البصري المألوف تضخين الطرف الرقيع لفرخ الورق مثلاً حتى تبلغ ثخانته ثلاث عقد أصابع، يتاح لهذا المجهار الجديد تضخينها إلى تسع أقدام. وكذلك يمكنه تضخيم الشعرة البشرية إلى حجم جذع شجرة قطره ست أقدام. ثم إن حقيقة إمكان تكبير الذرات الصغيرة من المواد، فوق أصلها ١٠٠٠٠٠ مرة على الأقل مع الاحتفاظ بجميع تفصيلاتها في صورتها الفوتوغرافية، وكذا تيسير تضخيم الصورة الفوتوغرافية في بعض الأحوال حتى تفوق أصلها ٢٠٠٠٠٠ مرة أو أكثر، هما من العوامل الجوهرية التي تبعث على تحقيق أحلام العلماء التي تخواها إن جزئيات المادة وذراتها ستصير يوماً ما من المرئيات المألوفة. ولا عجب فإن دراسة الجزيئات غدت من الموضوعات التي يعنى بها العلماء. ومن ثمة يزعمون أن الزمن

---

(١) الڤيروس Virus لفظ انكليزي يقصد به عامل من نوافل العدوى وهو أقل جرماً مما تستطاع رؤيته بالمجاهر.

(٢) هو نصب مقام في متنزه الكابيتول حيث شيدت دواوين الحكومة ومجلس نواب الولايات المتحدة الامريكية. وهو عمود أبيض ضخم مقام تذكاراً لجورج واشنطن أول رئيس لتلك الجمهورية الامريكية الكبرى ويبلغ ارتفاعه ٥٥٥ قدماً وله مصعد وسلم حديدي مؤلف من ٩٠٠ درجة يرتقيها الصاعد الى قمته التي يزينها رأس من الالومنيم. ويمتد ذلك المتنزه على شاطئ نهر بوتوماك حيث توجد سلسلة من المباني الحكومية الفخمة ومنها المتحف الوطني والمعهد السميثوني.

الذي سيتمكنون فيه من رؤية الذرة قد أزف ، ما دام في وسع الميكروسكوب الكهربي إظهار حتى الأشياء الصغيرة جداً التي لا يزيد قطرها على جزء واحد من عشرة ملايين من عشرة ملايين من البوصة . أو بعبارة أخرى الذرات التي تقل ٤٠٠٠٠ مرة عما تستطيع العيون البشرية إبصاره .

وقد بُدئ في أوربا بالأعمال التمهيدية لهذا المجهار منذ سنة ١٩٢٠ . أما التجربة الأولى التي جربت في القارة الأمريكية فحدثت في كندا في سنة ١٩٣٦ إذ قام بها الدكتور إ . ف . برتون وذلك في جامعة تورنتو حيث أنشأ أول مجهار من هذا النوع في أمريكا . وكان الدكتور ف . ك . روورينكين الموظف بشركة الراديو الأمريكية أول عالم اخترع المجهار الكهربي التجاري الأول وركبه في الولايات المتحدة الأمريكية وذلك في سنة ١٩٤٠ . ويربى عدد المجاهر الكهربية المستعملة الآن في العالم على ١٥٠ مجهاراً . وذلك في ميادين العلوم والصناعات . وكانت صلاحيته للمنافع التجارية احدى النتائج التي أسفرت عنها المباحث التي دارت في الراديو المصور « التلفزة » .

أما قاعدة ادارة هذا المجهار فهي من المبادئ الانقلابية من كل الوجوه ، في عالم الميكروسكوبات إذ لا تدخل في تركيبه عدسات زجاجية ولا تسلط عليه أشعة ضوئية . وإنما قوام (الرؤية) فيه ، موجات موجهة من الكهيربات تطلق بسرعة لا يصدقها العقل بوساطة طاقة كهربية تبلغ ٥٠٠٠٠ فولط ، ثم تضاعفها المجالات المغنطيسية .

والمعروف أن أقصى قوة التكبير للمجهار البصري هي ٢٠٠٠ مرة وذلك بحسب نوع الضوء نفسه أي وفق ما يسمح به طول الموجة الضوئية بأسرها ، ويمكن تكبيرها (المرئيات) أيضاً ولكن دون تكبير دقائقها .

أما طول موجة الكهيربات عند ما تطلق بسرعة عظيمة فتعادلها في الضوء ١٠٠٠٠٠ مرة . ومن ثمة تصير احتمالات التضخيم بها أكبر نسبياً . وهذا المجهار هو في الواقع صمام كهربي ضخم ، ويعد صنواً أكبر لصمامات الراديو الذي في دارك .

وفي ميدان علم الجراثيم يستعمل هذا المجهار لمشاهدة البكتيريا وتصويرها ولكشف مصادر عدوى الأمراض التي تستحيل رؤيتها بالمجهار الضوئي المألوف . ذلك لأنها أدق جداً

مما يكشف بوساطته . كما يستعمل لدراسة تكوين البكتيريا والخلايا البشرية وغيرها من دقائق الأجسام ، التي لم تبصرها عين قط .

ومما يجدر ذكره بشأن استعمال المجهر الكهربي في الميدان التجاري ، أن صانعه وزعة كبيرة لتربية المواشي في إقليم وآيو منح الواقع في غرب الولايات المتحدة الأمريكية اقتنى حديثاً مجهراً كهربيًّا ليتخذه وسيلة لاستكشاف خصب النيران . ثم استخدمه طبيبٌ بيطريٌّ ليباشر هذه الدراسة قصد الوقوف على العوامل المختلفة التي تجعل بعض النيران الخصابة المنتقاة ، التي يخيل لناظرها أنها أصلح ما تكون للعرض المطلوب منها فيخيب الظن فيها إذ يقلُّ نتاجها عن النيران التي هي أحطُّ منها .

وقد حذت حذوه شركة الألبومينيم الأمريكية فاستخدمت مجهراً كهربيًّا لمراقبة منتجاتها ، ولمراجعة نماذج المواد وفحصها . وأتيح لشركة كبيرة لزيت المعدني أن تكشف بهذا المجهر أسباب انسداد مرشحاتها الضخمة وتوقفها عن عملها ، إذ تبيَّن بوساطته أن مصدر تعطيل هاتيك المرشحات هو افتقارها الى مفتاح محكم يتحكم في الحرارة .

وربَّ قائل يقول ، عقب اطلاعه على الصور الفوتوغرافية العجيبة التي تصوِّر بالمجهر الكهربي ، ونعني بها صور دقائق عوامل نقل الأمراض ، وأحجامها وأشكالها وتكوينها ، « ماذا عسى أن نستفيد من هذه جميعها ؟ ! » فنجيبه إن تلك الصور ، حيال الناظر إليها بعين الفني تشبه في غرابتها وغموضها ، مثيلاتها التي تُصوَّر بأشعة رنتجن . ولكنها عند العالم المتمرِّن على « قراءة » الصور الفوتوغرافية الطبية ، نبراساً قويًّا ينير له غوامض مباحثه .

ومما لا ريب فيه أنَّ اختراع الميكروسكوب البصري المعروف قد عبَّد الطريق لاكتشاف الجراثيم ودراستها ، ومنها الخاصة بأمراض التيفود والحمى الصفراء والملاريا والدفتيريا والسلّ الدرني . وهو الأمر الذي أفضى إلى علاجها ولاختراع اللقاحات التي تشفيها أو تمنعها . وهذا كلهُ يوضح لنا ماذا يرجى من المجهر الكهربي . ومثال ذلك البعوض ، وهو آفة عامة فإن هذا المجهر الجديد ، يبين لنا دقائق جسم البعوضة إذ يكبرها حتى تبلغ حجم قبة الكابيتول [١] فيتيح للباحث عن كتب فرصة رؤية التركيب الآلي

(١) مجلس نواب الولايات المتحدة الامريكية

المتشعب لكل عضو من أعضاء البعوضة ووظائفه وتكوينه، فيسهل عليهم معرفة طريقة نقلها للأمراض وعدواها.

ولا مرية فالمجهار الكهربي يضخم صورة التقسيمة الهوائية لبرقة البعوضة تضخيماً عظيماً جداً حتى تظهر دقائقها جلية كل الجلاء، وإن يكن حجمها الأصلي يقل كثيراً عن نصف جزء من مليون من عقدة الأصبع. فمن المعقول إذن، من كل الوجوه، أن نتوقع كون دراسة تلك التقسيمات ستسبط لنا الثام عن معلومات جديدة تؤول الى وقاية الأنام من غوائل البعوض الفتاك. وقد مكن المجهار الكهربي العلماء من اثبات إحدى نظرياتهم المحبوبة التي جالت في خواطرهم أحقاباً عديدة ونعني بها احتواء الجسم البشري على قوات دفاعية تدرأ عنه الجراثيم التي تهاجمه. ونسمي أعداء الكتيريا والفيروسات virus (عوامل نقل العدوى) باكتيروفاج. ولم يكن في وسع العلماء دراسة هذه العوامل الدفاعية أو رؤيتها، وان كانوا قد استطاعوا تخيل أشكالها ووظائفها. أما الآن فقد أصبح في مقدورهم الحصول على سلاسل رائعة من صورها الفوتوغرافية تمثلها سابحة في مجاري الدم، ثم محتشدة فيه بغية مهاجمة القصيات «الباسلس»، حيث يشاهدون الحرب الضروس التي تنشب بين بعضها وبعض فلا تستغرق أكثر من عشر دقائق ثم تنتهي بهزيمة الجراثيم.

وفي خلال عشرين دقيقة يتدوق تحللها وتتفكك أجزاؤها ثم تتحطم تحطيماً تاماً. وذلك بعد انقضاء نصف ساعة. وحينئذٍ تتجلى صورتها الختامية كأنها انفجرت انفجاراً كاملاً إذ تتبدد ذراتها المحطمة منتشرة فوق ساحة الوغى. ويتيسر اتمام احدى هذه الصور في زمن يقل عن يوم فتقوم مقام جواب شافٍ، هو الذي ظل رجال المباحث، الطبية ينشدونه بلا فتور عشر سنوات.

ومن المكتشفات التي تكشفت بالمجهار الكهربي فأحدثت انقلاباً في ميدان الزراعة تبيان فيروس مرض البرقشة «التبقيع» الذي ينتاب التبغ (الدخان) والذرة وقصب السكر، إذ يظهر على أوراقها فيفسد محصولاتها فيضر أربابها سنوياً ملايين الجنيهات، وقد غدا في امكان العلماء دراسة ذلك العدو الأزرق الذي يفسد الدخان، دراسة محكمة إذ يتسنى لهم تحليل تركيبه ومعرفة تكوينه. وستكون الخطوة التالية التي سيخطونها هي

اختراع الوسيلة التي تقضي عليه قضاء مبرماً . (وقد علمت من المطلعين أن وزارة الزراعة المصرية ستقتني مجهراً كهربياً عن قريب لتستخدمه في مباحثها)

والمجهر الكهربي يكبر قرنية القطن الصغيرة جداً فيجعلها تظهر كأنها طوبة كبيرة الحجم . وهذا عدا إظهاره لتكوينها الداخلي . فيتبين الخبراء وجوهاً كثيرة يستأنس بها في صلاحية القطن وتموينه . وهي الصلاحية التي جعلته لا غنى عنه في شتى المرامي وأهمها .

وبالمجهر الكهربي تيسر لأول مرة رسم ذرات الزئبق التي توجد في اللبن الحليب ، لتسهيل فحصها ، وكذلك صار بحث أدق ذرات الصلب بحثاً عميقاً أمراً ميسوراً ، بغية تقديم معلومات صحيحة إلى المهندسين ، وإرشادهم إلى تحسين أنواع الخلائط التي توجد فيها منه . وهذا إلى جانب تمكينهم من اختراع غيرها .

وفي ميدان الصبغات الكيميائية ، يبين المجهر الكهربي للعلماء طريقة اتحاد جزيئين أو أكثر متشابهين من جزيئات المادة لتكوين جسم مركب ذي جزيئات أثقل وخواص طبيعية مختلفة ، وإن يكن مؤلفاً من العناصر نفسها بالنسب عينها . وهذه هي الوسيلة التي أتاحت تركيب أغلب الصبغات الكيميائية المعروفة في هذا العهد .

ثم إن صناع الكربون ، وهو المادة العجيبة التي تمكن إطارات السيارات من قطع مسافات شاسعة تختلف بين ٣٥٠٠٠ ميل و ٥٠٠٠٠ ميل ، قد تمت دراستها دراسة منتجة ، وذلك بالمجهر الكهربي . وقد تكشف للمهندسين الذين يدرسون الذرات الصغيرة ، الآلفة العجيبة الكائنة بين المطاط وصناع الكربون . ثم أسفرت مباحثهم في هذا الموضوع عن استبقاء ما يحتاج إليه تركيب المطاط الصناعي ، فنجم عن هاتيك المعلومات ، جعل الكاوتشوك الصناعي يكاد يقوم مقام الطبيعي منه في أداء ما يستخدم فيه من الأغراض .

وبهذا الجهاز الحديث عينه صوّرت صور فتّانة للقتال الذي تدور رحاه بين الجراثيم والبنيسلين ، ومنها صورة تبين الجراثيم التي توجد في الصديد . وذلك في وضعها الطبيعي المضطرب ، وصورة أخرى التقطت عقب حقن الجسم بالبنيسلين وهي تمثل الجراثيم ممزقة شر تمزيق .

× وما برح العلماء يهدفون إلى أتم جهاز مساعد لهذا الجهاز العصري ليكشف لهم

عن العناصر التي يؤلف منها كل نموذج يعرض لفحصه به . وقوام ذلك التحليل الكيميائي ، هو اختلاف سرعة الكهيربات في الذرات المختلفة الأنواع . ويتنبأ مهندسو الجهاز الكهربي بتوسيع نطاق استعماله توسعاً يشمل ميدان الزراعة فيصبح وسيلة لتحسين المزروعات وذلك بمعاونته الباحثين على كشف وسائل جديدة لمكافحة آفاتها وزيادة أحجام المنتجات وتكثير غلاتها .

ويؤكد كثير من العلماء وجود هرمونات (رسل كيميائية) ذات تأثير ثابت في نضج شخصية المرء أو قمها . وأن المورثات « عوامل الوراثة » التي توجد في الخلايا الجنسية هي أيضاً عوامل نقل الميزات الوراثية . ثم يقولون : —

أما وقد أصبحت الجرثات وربما الذرات أيضاً قريبة من حيز الرؤية البشرية ، فإذا عسى أن يحول دون مشاهدة هاتيك الهرمونات المورثات ثم دراستها . وهي التي تربط كل جيل بغيره ! !

فإذا حلّ ذلك العصر المرتقب الذي سوف نتمكن فيه من السيطرة على الوراثة والشخصية ، سار في وسعنا تجديد الجنس البشري تجديداً رائعاً . والمعروف من تاريخ اختراع هذا الجهاز وتحسينه أنه منذ سنة ١٩٣٠ حدث تقدم عظيم في تحسين المجاهر الكهربية في الدول المختلفة ولا سيما في المانيا إذ تبين للعلماء أن الكهيربات تسير في الحجرات المفرغة من الهواء في خطوط مستقيمة إلاّ اذا اعترضتها مجالات كهربية أو مغنطيسية . وأنه من اليسير جعل هاتيك المجالات تقوم مقام العدسات الزجاجية وتعمل عملها . وأن في نوع من المجاهر الكهربية تنبعث تلك الكهيربات من فتيلة ساخنة ، كما هي الحال في صمام الراديو ، ثم تنتقل ماجلاً وتُركّز بمغنطيس على الشيء المراد فحصه (١) .

وبعد كتابة ما تقدم اطلعنا على نبذة في احدى المجلات العلمية الأمريكية بعنوان (اختراع جديد يمكن المجهار الكهربي من رؤية الدقائق التي لا يزيد حجم كل منها على جزء من

(١) وهذا ما قاله حرفياً في مقال على معجزات العلوم والفنون نشرته في منتطف مارس سنة ١٩٤٦ تستطيع المجالات المغنطيسية والكهربية توجيه موجات الكهيربات الى أي ضرب كما يتيسر لك توجيه المياه بخرطوم ري الحدائق الى أية ناحية تقصدها .

٥٠ بليوناً من عقدة الاصبع فرأينا أن نلحقها بهذا البحث مسرورين لأنها تحقق ما تكهن به العلماء وورد ذكره في هذا المقال وذلك في الفقرة المميزة بهذه العلامة × بصفحة ٣٥٩

قد تمت حديثاً زيادة قدرة المجهر الكهربي في تضخيم حجم المرئيات من مائة الف مرة الى أكثر من مائتي الف مرة وذلك بعدسة مغنطيسية محسنة اخترعها الدكتور جيمس Dr. James Hillier هيلبار وبمعاونة زميله بري سميث ، وهما يعملان في معاهد المباحث العلمية الخاصة بشركة الراديو الأمريكية في برنستون بقليم نيوجرسي بالولايات المتحدة الأمريكية

وقد أعلنت هذه الخطوة العظيمة في سبيل فتح العالم الذي هو أحط من المرئيات الصغيرة جداً التي لا ترى بالعين المجردة . وقد تم هذا الاعلان برسالة علمية قدمها الى المعهد الامريكي لعلم الطبيعيات الدكتور هيلبار ، ذكر فيها أنه قد نجح في تحسين العدسات المغنطيسية التي تركز الموجات الكهربية تركيزاً بالغاً من شأنه تسهيل تمييز الدقائق التي تنفصل عن الأجسام انفصالاً لا يزيد بعد كل منها عن الاخرى على جزء من خمسين بليون من عقدة الأصبع .

ورغم هذا الفتح العلمي العظيم فقد أوضح الدكتور هيلبار أنه لا يزال تعترضه معضلات فنية جمة تستوجب الحل قبل تعميم هذه الدرجة السامية من القدرة على التحليل لتصوير صورة جلية جامعة لدقائق المرئيات ونشرها بين العلماء أجمعين .

والمظنون أن الدقائق المؤلفة للجزيئات الكبيرة ، وكذلك تأثير العقاقير في البكتيريا متكون من ضمن الأشياء التي سيكشف عنها اللثام فتتجلى للانام في مستقبل الأيام

ولا يخفى أن الصور الصحيحة التي تستطاع رؤيتها وتعني بها الصور الخاصة بتكوين الجزيئات ، ستفتح ميادين رحبة جديدة في الكيميا العضوية ، وهو العلم الذي حيانا بمواد النيلون والحرير الصناعي وغيرهما من الهدائن الكيميائية . كما أمدنا بالمطاط الصناعي والعقاقير المنقذة للحياة . أما في ميدان الطب ، فمن المحقق أن معلوماتنا الجديدة الخاصة بالتكوين الدقيق للفيروسات (عوامل نقل عدوى الأمراض) والخلايا الحية ستساعدنا مساعدة جليلة على استئصال ذينك العدوين اللذين لم نتغلب عليهما حتى الآن ، وهما شلل الأطفال والسرطان . ولا محيص قبل ختم هذا البحث من وصف أجزاء هذا المجهر الجبار

وطريقة استعماله فنقول إن مصدر الاضاءة في المجهر الكهربي ، فطب كهربي سلبي صاخن تنبعث منه كهيربات فتمرُّ هذه الكهيربات بقطب ايجابي في وسطه ثقب صغير . ويشخص هذا القطب بكهربا ايجابية تعجل مسير هاتيك الكهيربات . وفي المجهار لفة سلك على شكل دائرة جوفاء تولد مجالاً مغنطيسيًّا يقوم بحني مجاري هاتيك الكهيربات حنياً يصيرها كشعاعة موازية للجسم المراد فحصه فتسلط عليه فتخترق الأشعة الكهربية ذلك الجسم اختراقاً يتفاوت بحسب تكوينه ، حيث يقوم مجال مغنطيسي آخر بحشدها في بؤرة واحدة فتكوّن صورة مكبّرة ، ثمّ إن الأشعة الكهربية ، التي تؤلف جزءاً من تلك الصورة يتم تكبيرها أيضاً بالمجال المغنطيسي الثالث فتتكوّن منها صورة مكبرة أيضاً . فيتبين من هذا أنّ المغنطيسات الكهربية الثلاثة تقوم مقام العدسات في المجهار البصري . ولذا تسمى بالعدسات المغنطيسية ولكن هذه العدسات المغنطيسية لا يمكن تحريكها كما تحرك العدسات الزجاجية ، بل يتاح إحداث التأثير المقصود منها بتغيير التيار . والصورة المكبرة في المجهار الكهربي تؤلف بشعاعة كهربية خفية ، يتسنى إظهارها بحجاب متألق يتلقاها . أما الصور الفوتوغرافية فتصنع بجعل الشعاعة الكهربية تسقط سقوطاً مباشراً على لوح فوتوغرافي . ولما كانت الشعاعة الكهربية لا تؤدي عملها إلاّ في أنبوب مفرغ من الهواء فلا بدّ من وضع الجسم المراد فحصه بالمجهار الكهربي في فجوة ملائمة له في المجهار ثم إغلاقه عليه مع تفريغ الفجوة من الهواء . ومن المبرد إنجاز هذه الأعمال جميعها في ١٠٠ ثانية وذلك باستعمال المجهار الكهربي العام الذي تصنعه شركة الراديو الأمريكية R. C. A. من طراز EMU — إم — يو فينجم عن ذلك أن الدقائق التي تقل أحجامها عن جزء من مليون من عقدة الأصبع تسهل رؤيتها .

عرض مبشري

استدراك

وقع في المقال الخاص بالكاتودون المنشور في الجزء السابق من المقتطف خطأ مطبعي لم يتح لنا التنبيه عليه في حينه وهو ، وجوب حذف الجملة الآتية وذلك في سياق الكلام في العمود الاول من ص ٢٩٩ وهذا هي ذي : —

« فيقوم التلفزون مقام بؤره حينما توضع الشاشة في موضعها » فيستقيم المعنى ويزول الغموض .

مكتبة المقتطف

الطب العربي

مقدمة لدرس مساهمة العرب في الطب والعلوم المتعلقة به تأليف الدكتور أمين أسعد خير الله أستاذ الجراحة في الجامعة الاميركية في بيروت — ٢٧١ صفحة من القطع الكبير : بيروت ١٩٦٦

كتابٌ من الكتب الجامعة في هذا الباب ، وضع مقدمته المرحوم علي ابراهيم باشا جرّاح مصر الأول عليه رحمة الله فقال إن هذا الكتاب قد وعى تاريخ الطب في مصر والشرق كله وتضمّن المعرفة الطبية منذ كان العرب في الجاهلية الأولى ثم في صدر الإسلام من عهد الخلفاء الراشدين ، وتوسع في الطب العربي ومؤرخيه ، وكشف عمّا خطه العرب وما ترجموه .

ولقد أُلّف هذا الكتاب باللغة الانجليزية ونشر بها ، فترجمه دكتور من الفضلاء هو الدكتور مصطفى أبو عز الدين ووضع للترجمة مقدمة هي على إيجازها للتّعريف بمثل هذا العمل الكبير تدل أقوى دلالة على تعرف ما كان للعرب من أثر في العلوم عامة وعلم الطب خاصة . فمن ذلك مثلاً أن ابن الهيثم كان أول من قال بأن شبكية العين هي مركز المرئيات التي تنقل منها الى الدماغ بواسطة عصب البصر ، وإن وحدة الصورة من الباصرتين تعود إلى تآلفها في الشبكيتين . واكتشف ابن النفيس الدّورة الدّموية الرئوية قبل سرفيتوس بمئتين وخمسين سنة ، ووصف مجيء الدّم فاسداً الى القلب ومنه الى الرئة حيث يختلط بالهواء ثم يعود الى القلب نقيًّا ليوزعه على الجسم . وعلي بن عباس المجوسي سبق هارفي بمئات السنين إلى كتابة أقرب وصف للدورة الدموية في الأوعية الشعرية . وأبو القاسم الجرّاح العربي المشهور والمعروف بالزهراوي استعمل ربط الشرايين قبل إمبرواز بياري بأجيال وهو نفسه وصف داء الهيموفيليا وقال إنه « عائلي » . وكان أطباء العرب أول من قال بانتقال الأمراض السارية بواسطة المخالطة .

على أننا أحوج ما نكون في هذا العصر الى معرفة تاريخنا . ولقد تغير فهم التاريخ في العصر الحديث فانتقل معه من مجرد رواية الاحداث الى تحليل الحياة العقلية والاجتماعية وتفهم أسبابها ونتائجها وعلاقتها بالحاضر والمستقبل . ولا شك عندي أن هذا الكتاب من دعامات التاريخ المثلى في تاريخ العربية .

قصة النزاع بين الدين والفلسفة

تأليف الدكتور توفيق الطويل مدرس الفلسفة بكلية الآداب بجامعة فاروق الاول :
٢٩٩ صفحة من القطع الكبير : ١٩٤٧ القاهرة

انقسم المؤرخون قسمين : أحدهما يرى أن لا نزاع بين الدين والفلسفة وعمدتهم في ذلك أن اللاهوت هو الذي ينازع الفلسفة ، أما جوهر الدين فلا . وثانيهما يقول بأن الدين واللاهوت كليهما ينازع الفلسفة . ولعل السبب في ذلك عدم تحديد المقصود بكلمة « فلسفة » وكذلك عدم تحديد المقصود بكلمة « دين » . ولا شك أنه من أصعب الأمور تحديد المفهومين تحديداً جامعاً يقيم البحث في تنازعهما على قاعدة ذات حدود وروابط يأتم بها المؤرخ أو الناقد . ومن حيث بدأت البحث في ذلك الأمر انتهيت الى فكرة غامضة في دلالة المفهومين : مفهوم الفلسفة ومفهوم الدين . وإذن تكون مهمة المؤرخ الذي يتصدى للكلام في تاريخ ذلك الصراع إنه لا يجعل همه في التعريف بل في الاثبات والتقرير ، واستخلاص الفكرة العامة في ذلك من مقتضى الواقع ، لا من مقتضى الدلالة التي تتحيز في ذهنه من معنى الفلسفة ومن معنى الدين .

ما من شك في أن هنالك صراعاً وقع بين الفلسفة والدين . وما من شك في أن ذلك الصراع قد توالت عليه ألوان من العقيدة والفكرة والتقيد والتحرر ، والحقيقة والخيال ، والاثبات والنقض ، وتوالته قوى كثيرة هذه جاذبة وتلك دافعة ، وهي حيناً حارة مضرمة ، وحيناً هادئة باردة الانفاس . ولعلي لا أكون مخطئاً خطأ كبيراً إذا قلت أن السبب في ذلك هو ذلك التنوع الفكري الذي ظل يمايل العقل الانساني حيناً الى ناحية الفلسفة ، وحيناً إلى ناحية الدين . فكثيراً ما خرجت من بحوث الفلسفة نزعات دينية ، وكثيراً ما خرجت بحوث الدين عن مذاهب فلسفية . ومرجع ذلك وما آله هو لدى الحقيقة العقل البشري ونزعات النفس وتأثير العوامل الاجتماعية والاقتصادية خاصة في رسم الطريق الذي يتجه الفكر . وأني لعلى يقين من أن المذهب الذي أذهب اليه في هذه الناحية صحيح في جوهره ، وهو

عندي أن درس مثل هذه الأشياء وبخاصة ظواهر الصراع بين ناحيتين من نواحي الحياة الانسانية كالدين والفلسفة ، ينبغي أن يخضع أول شيء لتحليل العوامل المحيطة بالانسان في عصر من العصور وبخاصة عوامل الاجتماع والاقتصاد وما يصورها من مظاهر عقلية ومادية . فقد نرى مثلاً أن بلاد فرنسا قبيل ثورتها الكبرى كانوا ملاحدة نزاعين الى التحرر الفكري ، فحمي وطيس النزاع بين الدين والفلسفة ، فلما دهمتهم الثورة بويلاتها وأخرجتهم من ملكوتهم ونزعت عنهم امتيازاتهم ، ارتدوا مؤمنين بالله واليوم الآخر ، وأموا الكنائس يلتمسون من جدرانها السلوى والمغفرة .

قد يكون هذا المذهب في واقع الأمر هو المذهب الايجابي في تحليل حقيقة الصراع بين الدين والفلسفة ، ولن نستطيع أن نصل الى الأسباب الحقيقة في اضطرام هذا الصراع حيناً ، وهدوئه حيناً آخر ، من غير أن نرجع الى الملابسات الاجتماعية والاقتصادية .

الكتاب الذي نحن بصدده من الكتب التي نحتاج اليها كل الاحتياج ، وقد رتبه مؤلفه الفاضل بحسب العصور ، وحصر كل همه في رواية الوقائع وقصها ، ولعله يوافقنا على مذهبنا الذي نذهب اليه في كتابة هذا التاريخ ، ولعلنا نفوز منه برأي فيه

الآداب السامية

مع بحث مستفيض عن اللغة العربية وخصائصها وثروتها وأسرار جمالها ، تأليف الاستاذ محمد عطيه الابراشي المفتش العام بوزارة المعارف : ٢٥٨ صفحة من القطع الكبير : ١٩٤٦ : القاهرة

تقصّى الأستاذ الفاضل مؤلف هذا الكتاب نشوء اللغات السامية فبدأ بتعريف شامل لما يعنى الكتاب من اللغات الساميّة ، وعقب على ذلك بالكلام في فروع الأصل اللغوي السامي فعقد فصلاً في اللغة العبرية وعقب عليه بفصول في الفنيقية والارامية والسريانية ، ثم تخلص من ذلك إلى الكلام في العرب واللغة العربية . ولعلّ أعظم ناحية من نواحي الكتاب هو اتباع الطريقة المثلى في هذه البحوث وهي الطريقة التاريخية التي تظهرك على تسلسل الأسباب وتتالي الصور في انسجام كامل ، يخلق في الذهن فكرة تامة عن موضوع البحث . ولقد قرأت ذلك الكتاب على بعد موضوعه عن دراستي الخاصة ، فاذا بي في صميم آداب العربية ، أربط بين أجزائها وأوفق بين ما تنافر منها ، فأخرج من جُمّاع ذلك بتصور صحيح في أصل لغتنا العربية المجيدة والكثير من خصائصها التي أضفت عليها من الجمال والقوة ما يجعلها في طليعة لغات العالم كله .

تاريخ العصر الحاضر

تأليف رينيه التيني — بقلم — فلسطين

مؤلف مدرسي لطلاب الثانوية ، جرى فيه مؤلفه على الطريقة الحديثة في وضع كتب التاريخ وأقصد بالطريقة الحديثة طريقة القصص التاريخي الملائم لتكوين فكرة عن الحالات السياسية التي تقوم في الأزمنة والأمكنة المختلفة ، قاصرة على تاريخ العرب والانعطاف نحو تاريخ الشرق إذا جدّت حاجة الى ذلك . ولكن المؤلف قد أدرك ذلك النقص الذي يبدو جليًّا في كل المؤلفات المدرسية الحديثة ، فعقد فصلاً ممتعاً في « نهضة العرب في القرن العشرين » « وآخر في الحركة الفكرية في العصر الحاضر » فأكمل بذلك نقصاً تألمه في كثير من الكتب التي يدرس عليها الطلبة في معاهدنا . ولعلنا نستطيع بعد قليل ان ندخل في مادة التاريخ عما قريب تاريخ التغاير الاجتماعي والاقتصادي ، وتفسير الاحداث الجارية يقتضي ذلك فنخلص الى جوهر التاريخ ولُبابه ونترك قشوره وظواهره .

أحلام الربيع

من شعراء الحجاز المحدثين المجيدين الأستاذ طاهر زمخشري وقد أخرج أخيراً ديوان « أحلام الربيع » طافة من الورد جمعت من كل لون زهرة .

ففي الديوان تحية الملكين فاروق وعبد العزيز عند اجتماعهما في رضوى وفي القاهرة ، وتحية لعاهل الجزيرة بعنوان « عودة الصقر » عند اجتماعه بالقطبين السياسيين روزفلت وتشرشل ، وقصائد شتى فاضت بها قريحة الشاعر في مناسبات متباينة .

وأبرز سمة في الشاعر الزمخشري حبه للسهولة غير المتكلفة واجتنابه للعجفو من الكلام وايثاره المعاني السافرة عن المعاني المستترة .

وديوان « أحلام الربيع » من أول دواوين الشعر الحديث في الحجاز التي عرفت طريقها الى المطبعة ولم يسبقه من قبل سوى بضعة دواوين تكاد لقلتها تعد على الأصابع .

وأهدى الشاعر الزمخشري ديوانه لسعادة الدكتور محمد حسين هيكل باشا « من بناة النهضة الفكرية في مصر والشرق العربي » كشمرة من ثمار تشجيعه وزهرة من الزهرات التي تعهدها بالرعاية اعترافاً له بالجميل .

وقد صدّر هذا الديوان بمقدمة نفيسة للشاعر المصري الأستاذ حسن كامل الصيرفي أوضح فيها صفات صاحب الديوان .

١ — الله

للاستاذ عباس محمود العقاد — صفحاته ٣٠٠ صفحة من القطع الكبير طبع بمطبعة دار المعارف بمصر

آية جديدة على ما بلغه من الذهن العبقري من النضج ، والتعمق ، تتجلى في هذا المجهود الجبار ، الخصب ، الذي يقدمه — المؤلف — في جلية الآثار العقلية ، الخالدة ، عن بارىء الكون ، ومدبر العالم ، ومبدع الكائنات ، فقد تناول فيه هذا الجانب المذكور في الطبيعة البشرية . والذي يمكن أن يطلق عليه الوعي الالهي . بالدراسة المستوفاة ، والبحث العميق ، فالانسان مزود بهذه الخاصة الوجدانية التي تنهض على الايمان الفطري بخالق الانسانية ، فليس عمل الاديان إزاء هذا الوعي بالعمل الخالق له ، بل هو بمثابة الغذاء الذي يتطلبه الكائن الحي ، وتطوره ، وإكماله ، فالتدين غريزة في كيان الشخصية الانسانية ، ولكن هذه الغريزة قد لبثت الدهور . وهي تتخذ مظاهر ساذجة ، بدائية ، صارت فيما بعد الحياة العامة في مختلف ألوانها حتى بلغت أوج حيويتها عندما تهيأت لاستقبال آخر رسالة من قبل السماء ! فعصور الوثنية ، وفترات التوجس من بداوات الطبيعة لم تخل من التدين ، بل كل هذه ألوان كانت ترتديها تلك الغريزة ، والذي يجرد ، أو يحاول تجريد الانسان في ثنايا تلك الحقب من التدين يتجنى على الحقيقة ، ويخطئه توخي الانصاف ، والاستاذ — العقاد — قد إتكأ على أمتن دعامة عند ما رجع بهذه الظاهرة إلى أصولها ، وتتبعها في منابتها الاولى ، ثم أخذ يسايرها في شتى صورها عند البدائيين ، والفلاسفة وفي الشرائع السماوية ، وأخذ يعرض تلك الصور التي إستطاع العقل في طفولته ، وشبابه أن يتمثلها عن — الله — ويناقشها في دقة وفهم ، ومقدرة ، ويفصل في لباقة بين الجواهر ، والاعراض والقباب والقشور ، وما أكثر ما استنفدت هذه المعضلة من قوى المفكرين الذين استخدموا العقل ، وتسلحوا بالمنطق ، أو من هؤلاء الذين احتكموا إلى الوجدان ، واستجابوا للعاطفة والكل يجهد في تدعيم الصورة التي هدته إليها تجاربه الفكرية ، أو ألهمته إياها عاطفته الدينية المشبوبة ، ولكن منتظل وراء هذه المجادلات العقلية ، وبعد هذه الخلافات العرضية حقيقة لا يمكن جحدها ، ولا سبيل إلى نسيانها ، أو تجاهلها ، وهي شعور الانسان الفطري بأن هناك قوى فوق طاقة العقل تعلمها ، ومعرفة كنهها ، تسيطر على الكائنات ، وتديرها ، وفق قانون ثابت ، مطرد حكيم ، هذا بعض ما انتهى تقريره بالمنطق الحكيم ، الاستاذ — العقاد — والايمان مرده إلى الوجدان ، والشعور ، وما عمل العقل إلا التفرقة بين الباطل والصحيح ، والزائف ، والسليم ، فليس العقل هو الذي يوجد الايمان بل هو يقويه

ويدعمه عن طريق العقل ، ويبعد عنه العوائق فلا ضير ، إزاء هذه الحقيقة ، على كيفونة الدين من تقدم الفكر وبشاشته ، هذا التقدم الرائع ، عادم لكل ميدانه ، وبجاله ، ورسالته ، وأن هذه الدعايات المأفونة التي تذهب إلى أن المذاهب الاجتماعية يمكن أن تحل محل الأديان ، وتؤدي عملها ، وأن التقدم كفيل بمحو الأديان . فرية باطلة ، لا سند لها ، ولا بقاء ، ومهما كان من تفوق العقل وازدهار العلم ، فهو يثري العقيدة ، ويضاعف الإيمان ، لا أن ينال منه ، كل هذه الشبه ، وأمثالها ، قد تعرّض لها الأستاذ — العقاد — وفندها ، وردها إلى ما يجب أن تنتهي إليه ، فكم من فلاسفة ، ومفكرين ، تأزلهم الأستاذ ، واستطاع أن يأخذ منهم قصب السبق وأن يديل من أيديهم الحجة فكانت آية على جبروت هذا العقل الجبار ، الذي اقتحم هذا السبيل الذي تكثر أشواكه ، وتزالقه ، بقدم ثابتة ، وجنان يقظ ، وقلب ثابت ، وهو طريق يثير الإشفاق الكثيرين ويملأ قلوبهم رعباً ، وأفئدتهم هولاً ، فيتقونه ، وينأون عنه ، ولكن هذا المفكر الجسور ، قد ضرب في أعماقه ، وجاب مجاهله ، وقدم ما يجمل أن يقدم من ثماره ، ولعلّ في عمل هذا الرائد ما يمهد السبيل الى اكتشاف ما يستتر في باطنه من كنوز ينتفع بها في حياتنا الدينية ، والعقلية ، وفي تاريخنا الفكرة التدين ، وإبراز الألوان التي استطاع العقل أن يخلعها على — الإلـه — وعلى أي الصور تبدى له أن يتمثله ؟ فهي مراحل مغرية ، مشوّقة ، تستهوي اللب وتستلفت الخاطر ، والكتاب يجب أن يقرأه كل مثقف ، ليرى خلاصة مركزة لتلك المجهودات التي أنفقت العصور ، والأعمار في سبيلها ، وينال ما يستحقه من عناية العلماء ، والباحثين من دراسة ، وتعليق ، وأن يستقبل بما هو أهل له ، فهو عصارة ما بذلته البشرية خيال هذا السر العظيم ، ودراسات لنظريات الفلاسفة ، وآراء المفكرين ، واستعراض لكل ما يدور في هذا المجال ، وهو من حيث الدراسة . فهو يحمل طابع الأستاذ — العقاد — وخصائص ذهنه ، من حيث دقة بحثه ، واستيفاء أطراف موضوعه ، وقوة شخصيته ، وتحفزاتها ، وأنها تروعك بجبروتها . مهما كانت الشخصية التي يجاورها ، هذه كلمة عابرة في هذا الكتاب الذي آمل أن يقابل بما هو خليق به من الدراسة ، والعناية .

٢ — الموازنة بين الطائيين للآمدي

شرح وضبط وتعليق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد

الأستاذ محيي الدين من الشخصيات العلمية ، القلائل التي وهبت كل حياتها ، منحة ، جوادة ، للعلم ، والبحث ، والدراسة ، والتأليف ، في هدوء ، وصمت بعيدة عن

سمعة الاعلان ، غير آبهة بألوان الدعاية ، تاركة لوجودها ، وأصالها ، أن تنطق بأروع بيان وتجلجل في مسامع العصر ، مفوضة إلى التاريخ — وهو أحكم الحاكمين — تقدير انتاجها ، وانصافها ، فلو أننا نعيش في بيئة تزن الأعمال بالقسطاس المستقيم ، لكان لهذا العالم الثبت ما له في هذا الجو الذي تطغو على سطحه كثير من الفقاقيع ، فلقد زود هذا الجيل بأزواد تنوء بها الجوامع الضخمة ، وهو متعدد النواحي العلمية ، من أدبية ، وتاريخية ، ولغوية ، واسلامية ، عميقها ، يجول في ميادينها بقدم ثابتة ، وذهن قوي ، وحسبه أنه قد تولى هذا التراث النحوي الذي تركته العصور ، وهو أشد ما يكون اضطراباً ، مما جعل مهمة الدارس له غاية في المشقة ، والعسر ، حتى كاد اليأس من الانتفاع بهذه الذخائر يقضي على كل شيء ، فأولاها عنايته ، وأوقف عليها نشاطه حتى استطاع أن ينتي وقد أخرجها جميعاً في أبهى حلة من الاخراج العلمي والتنظيم والتبويب ، والفهارس مما كان له أجل الأثر في المعاهد والجامعات التي تتولى تلك الدراسات العربية ، وقد عنّ عليه أن يرى كتب الفقه الاصلاحي تعاني تلك العلل التي يعرفها كل من تصدى للدراسات الفقهية فأخذ في إصلاحها ، وتهذيبها ، وتقريبها إلى الأفهام ، ولو ذهبت أعدّد ما قام به ، ويقوم من تلك المجهودات لطال بي القول. وحسبه أنه أصبح يتفرد بمكتبة من انتاجه ، واخراجه وهو عالم ضليع ، واسع الاطلاع عميقه ، وأديب ممتاز له ذوقه ، وفهمه ، وبصره في النقد الأدبي ، وهو جزل الأسلوب ، متين العبارة ، غير أنه يرى أن هذه الكتب وهي كل تراثنا أولى بالجهود لاصلاح ما يعتورها من اضطراب ، ويشيع فيها من خطأ جرّه عليها اجحاف عصور الظلم والركود ، وتزيده تمسكاً بهذه العقيدة عدم توافر الجهود اللازمة في هذا الميدان ، فهو يؤثر داعماً هذا الميدان على غيره ، لأن في إحياء هذه الآثار ، ورد عادية البلى عن حماها ، نوع من التجديد والمساهمة ، والكتاب الذي نحن بصدد من أهم الكتب التي عنيت بالنقد الأدبي ، فهو يدور حول شاعرية شاعرين من فحول شعراء الأدب العربي ، وهما : أبو تمام ، والبحتري ، فيتناول مواضع الجودة وينبه على مواطن الضعف في آثارهما ، ويحاول أن يبين كل ذلك فالكتاب له قيمته من حيث هو يؤرخ مرحلة من مراحل تطور النقد عند العرب ، ويبصر الناشيء بمواطن الجودة ، ومآخذ الضعف ، ويعين على تذوق الأدب ، وهذا — الكتاب يعد من أمهات الكتب في هذا النوع غير أنه كان يعاني ذلك الداء الخاص الذي يطغى على أمثال هذه الآثار من التحريف والتشويه ، والاضطراب ، مما يحول بينها وبين الانتفاع بها في صورة ، ويسر ، فاستطاع الأستاذ الفاضل — أن ينتي ما فيه من الشوائب ، ويخلصه من الأغلاط ، ويصلح ما فيه من فساد ، ويبوّبه ، ويثبوته ، ويضع له الفهارس ، ويخرجه

إخراجاً جميلاً ، دقيقاً ، فهد السبيل الاقتناع بهذا المورد العذب في النقد الأدبي وهي رسالة لا يضطلع بها إلا هؤلاء الذين أوتيت لهم ثقافة ، شاملة ، مركزة ، وورقوا من الصبر ما يعينهم على هذه الجهود الشاقة ، ومن الإخلاص للعلم ، ما يحبب إليهم كل صعب في سبيل تأدية رسالتهم وكل هذه الخلال يتحلى بها هذا الأستاذ المخلص ، وفقه الله لخدمة العلم ، والنهوض برسالة العلماء .

محمد جميل الحليم البوريني

١ — مصر الظافرة

١٣٠ صفحة من قطع المقتطف — المطبعة الاميرية ببولاق

البكباشي عبد الرحمن زكي مدير المتحف الحربي أديب أغنى المكتبة العربية في ناحية كانت هي فقيرة فيها فأنشأ ثقافة عسكرية مزج فيها بين الأدب والتاريخ والفنون العسكرية ولم يقف به نشاطه عند العمل في حدود عمله العسكري من تكوين مكتبة عسكرية وإدارة مجلة للجيش وتنظيم المتحف الحربي وتقوية روح التأليف والكتابة بين رجال الجيش وتحبيب المطالعة للجنود . فهو ما ينفك بين حين وآخر ينفح المكتبة العربية بأثر جديد له .

وقد أصدر أخيراً الطبعة الثانية من كتابه « مصر الظافرة » وهو صفحة من تاريخ مصر القومي ، استعرض فيها حقب التاريخ كما يستعرض موكباً من المراكب اجتمعت فيه ألوان شتى من تاريخ مصر الفرعونية حتى العصر الحديث وذلك في عرض شائق وأسلوب جميل.

والكتاب بالرغم من صغر حجمه وضخامة الموضوع الذي تناوله مؤلفه الفاضل ، قد استوفى الموضوع حقه من الأداء فلم يخل ايجازه بشيء من صور التاريخ المصري عصراً فعصراً . وهذا الموضوع يتصدى له خير به فيحسن تصويره ويلم بشتاته ويعرض لقارىء صفحة هي بحق جديرة بما توج به الكتاب بالكلمة الذهبية المغفور له الملك فؤاد الأول وهي « ستكون مفاخر ماضينا وتراثنا الخالد خير عون لنا في بعث وطننا من جديد ، وفي التقدم به نحو الكمال الانساني ، ذلك الكمال الذي ظلّ — على تناحر الشعوب واختلاف الفلاسفة في جميع الأقطار والأزمان — منذ كان أرسطو حتى تولستوي — حلم العصور الكثيرة المتعاقبة ، والمنارة اللامعة المغرية في آفاق البشرية السامية »

٢ — صحيفة البلاد السعودية

كان لهذه اليقظة التي بعثها العاهل العظيم جلالة الملك عبد العزيز آل سعود في الجزيرة العربية أثرها في كل منحى من المناحي عمرانية أو ثقافية ... وآية ذلك تلك النهضة القوية التي تبدو آثارها فيما ينتج أدباء الجزيرة في هذه الآونة .

ولقد نهضت الصحافة هناك في عصره نهضة تشبه نهضتها في هذا الزمن . فإنك من الصحف الآن ما تضارع صحف البلاد العربية الأخرى ، وربما سبقتها الصحافة التصفية ما يدعو الى الاعجاب . وفي مقدمة هذه الصحف صحيفتان إحداهما العربية وهي «الجهل» التي يصدرها الاستاذ عبد القدوس الانصاري — وقد سبق أن عرفت بها في هذه المجلة — والأخرى «صحيفة البلاد السعودية» وتصدر يوم الثلثين من كل أسبوع في حجم الجرائد اليومية . ويتولى إصدارها الشركة العربية للطبع والنشر ورؤساء تحريرها أديب مختار الدهنية رقيق الأسلوب قوي التعبير هو الأستاذ عبد الله عريف يعاونه في ذلك قرين كبير من أدباء الجزيرة العربية البارزين من أمثال الأساتذة احمد عبد الغفور عطا ومحمد حسن عواد وطاهر زمخشري وحسين عرب وحسين سرحان ومحمد حسن فقي والأنصاري وحسن عبد الله القرشي وعزيز ضيا وغير هؤلاء ممن يحملون علم النهضة الأدبية في الحجاز .

وقد أصدرت هذه الصحيفة بمناسبة دخولها في سنتها الثانية عشرة عدداً ممتازاً في طباعته الملونة وفي إخراجه وفي موضوعاته وقصائده ضمّ الكثير من نتاج من ذكرنا من هؤلاء الأدباء الافاضل ومن كثيرين غيرهم ، وقد توّج بكلمة لحضرة صاحب السمو الملكي الأمير عبد الله الفيصل ، وازدان بكلمات لحضرات أصحاب السعادة الأساتذة محمد سرور الصبان وعبد الرؤوف الصبان والشيخ ابراهيم السليمان وفضيلتي الشيخ محمد بن ناصر والسيد صالح عطا والأمير الاي علي بك جميل .... وانها لنهضة مباركة يرجع الفضل فيها الى الجهود التي بذلها عاهل الجزيرة العظيم وآل البيت السعودي الكريم الذين يحتضنون النهضة الفكرية ويعملون على رفع منارها وإطلاعة الحياة الأدبية إلى الجزيرة كما كانت في أزهى عصورها .

الصيرفي

اختزال واكد

وضع حضرة الأستاذ فؤاد واكد رئيس قسم الاختزال بمجلس النواب المصري كتاباً يتضمن شرحاً وافياً للطريقة التي ابتدعها للاختزال باللغة العربية بعد ما درس طرق الاختزال باللغة الانجليزية وألم الماماً تامًّا بكيفية تبسيط هذا العلم واستعماله في سهولة ويسر .

ويقول الأستاذ واكد أن ما حفزه إلى إخراج هذا الكتاب هو ما تبينه من افتقار اللغة العربية إلى مثيل له يسهل تداوله والاعتماد عليه في درس هذا الفن .

١ — أشواك

الأستاذ سيد قطب

دار سعد مصر — ١٤٨ صفحة من الحجم المتوسط

لم أكد أفرغ من تلاوة قصة أشواك التي صدرت أخيراً للأستاذ سيد قطب حتى تناولت قصة « سارة » للأستاذ عباس محمود العقاد ، لأن مشابهة ملحوظة بين القصتين استوقفت نظري . فالقصتان على ما يتضح من عنوانهما مستمدتان من حياة كاتبيهما . وموضوع كل منهما يكاد يكون واحداً ، فمحوره أن شاباً يحب فتاة فتبدي له الفتاة من التدلل والصدّ ما يقطع الصلة بين العاشقين .

ولم يسترع انتباهي تشابه موضوع القصتين وحده ، بل راعني فضلاً عن ذلك تقارب جليّ في تخيّر عنوانات الفصول في كل من الروايتين . فبينما يعنون العقاد فصلاً « بشكوك » يعنون قطب فصلاً « بأشواك » . وبينما يتخذ الأول العنوانات التالية « وكان صباح » و« مضحكات الرقابة » و« من هي » و « القطيعة » يتخذ الثاني العنوانات التالية « موعد » « سخريات » و« أنثى » و « القطيعة » وجليّ أن المعاني تتقارب وإن تباعدت الألفاظ غيثاً ما .

ولا أريد أن يرخذ كلامي على أن الأستاذ قطب نقل عن الأستاذ العقاد ، فلكل منهما طريقته الخاصة في الكتابة وفي معالجة « تجربة الحياة » التي عرضت له ، ولكل منهما أسلوب خاص في معاملة المرأة سواء كان ذلك في حياة الواقع ، أو دنيا الخيال والتصور ، ولكن هذا التشابه فرض نفسه عليّ فرضاً رغم الشقة المسيحة بين زمن قراءة كل من هاتين الروايتين .

واستوقف نظري في قصة الأستاذ قطب شيء من التحرر من التقاليد التي تواضعت عليها العائلة المصرية . ومن ذلك مثلاً أن بطل روايته خطب لنفسه فتاة ، فكانت هذه المزيّة تؤهله لأن يقتحم عليها حجرة نومها ويصحّاها وهي أدنى إلى العري منها إلى الستر ، وكانت تخوّل له أن يبيت في دارها دون أن يعترض والداها على ذلك ، وكانت تبيح له أن ينفرد بها في ممر الدار ويحتضرها احتضاراً ويرشف منها ما شاء من رحيقها المذخور . بل إنه ، حتى بعد أن قطع كل صلة بها ذهب إلى دارها فدعش جميع الذين كانوا فيها ولم تحل دهشتهم هذه دون أن يختلي الخطيب السابق بخطيبته السابقة بعد استئذان أهلها ، ليفاتحها في موضوع حلم حلمه يتعلق بأخص خصائص المرأة .

وفي رأيي أن القاصّ اندفع بعض اندفاع في إعداد هذه المواقف لأنه لو تحرّى مطابقة قصته للواقع المألوف لتجنب هذه الأخطاء .

وبعد فالقصة لا تفتقر إلى عنصر التشويق ، وإلى التفاصيل ، فهي حافلة بها ، ولعل خاتمتها « الخاتمة » أجمل ما فيها لأنها تعرض لنا فكرة جديدة هي « الأبوة المصورية » أي أن يخال رجل نفسه أباً للطفل ليس من صلبه .

٢ — جرائم واغتيالات القرن العشرين

للأستاذ عبد الحليم الجندي

الجزء الثاني — دار سعد مصر — ١٦٠ صفحة متوسطة

أصدر الأستاذ عبدالحليم الجندي المحامي بأقلام قضايا الحكومة كتاباً من جزأين عنوانه « جرائم واغتيالات القرن العشرين » تحدث في الجزء الأول عن ابراهيم الهلباوي بك أول نقيب للمحاماة في مصر وتناول في السفر الثاني حياة محاميين بريطاني وفرنسي تصلّما من فنّهما وتميّزا على أقرانهما بما وهبا من استعداد فطري لمراس المحاماة ، كأن مهنة المرافعة لم تخلق إلاّ لهما .

والسكوتي هو مارشال هول ، وهو معروف المصريين بدفاعه الجبار في قضية مقتل الوجيه علي فهمي بيد زوجته الفرنسية مرجريت فهمي ، وقد استطاع بقوة حجته وتحامله على الحقائق واختلاقه أموراً لا نصيب لها من الصحة أن ينقذ موكلته مرجريت من المقصلة مع ثبوت جرمها ومغالاة القانون في عقاب مقترف جريمة القتل .

كان رجلاً يناضل المقادير بل ويوجهها حسبما يشاء ، فقد كان في طاقته أن ينتزع من بين براثن الموت متهمين ثبت جرمهم واعترفوا بإثمهم على الملأ ، أو كما قال الأستاذ الجندي « كان يستخرج القاتل من القفص ليستجوبه كشاهد لا كتهم ! »

بعثت إليه معجبة به رسالة تثني فيها عليه وترجوه أن يرافيها بصورة « أكبر المحامين دهاءة وعبقرية » فما كان منه إلاّ أن بعث إليها مزجياً شكره وأرفق كتابه بصورة محامي خصمه !

ولكن هذا المحامي الذي جلجل صوته في ساحات القضاء في بريطانيا كان سيء الحظ في حياته الخاصة إذ حدثت جفوة بينه وبين زوجته وكانت حلبة القضاء ميداناً شُهِّر فيه بمحامي بريطانيا الأكبر وأصبحت أخصّ علاقاته بزوجته موضوعاً تلوكه الألسنة وتجترّه الأفواه .

والمحامي الفرنسي هو هنري روبير ، وهو متفرّد في صفاته ، عبقريّ في فنّ الكلام وفن الكتابة ، يلعب بالألفاظ لعباً ، ويحاور ويداور ما شاء له المقام حتى يرتاب القفر بثماره الناضجة

لو أراد لأصبح وزيراً في فرنسا ، ولو شاء لتصدّر الساحة في بلاده في مستهل هذا القرن ولكنه تقطع لمحاماة منصحاً وقته بعض التي لا التأليف والتسويد . وليس في الوسع أن أصور هنري روبير كما صوره الأستاذ الجندي . فقد نشره الكاتب من قبره ونفث فيه روح الحياة ليراه القارئ ناطقاً بالحيوية متجسماً أمام عينيه .

فاسمعه يقول :

« نحن الآن في المحكمة ، وها هو ذا النائب العمومي يترافع ، وذلك محام مادي يكاد يتم . ولكنه بعض الآن بادي الرشاقة ، رفيع القامة ، قوي الصوت ، واضح الكلام ، ينطلق في سرعة غريبة كأنه يخشى فوات الميعاد ! إنه يتكلم كأنه يتحدّث ، وها قد مضت بضع دقائق دون أن يظهر إنه محام عظيم ، ولكنه قد أوغل في الصميم ، وحميت الوقدة ، واشتعل لهيب النار ، والتفت الحجة متدافعة ممعنة ، فهو يضرب يميناً ، ويضرب شمالاً ، كلاعب السيف ، ضربات منظمة ، وأحياناً كثيرة ضربات غير منظمة ، تسحر العيون ... أو كما شبهه بالحاوي ، إذ يبهر الحاضرين بعبقريته وحركاته المتقطعة ، بينما هو يلتقط على أعينهم أعظم شيء في أيديهم ، وهو هنا روح المتهم ! » .

إنه كتاب ممتع ، لأنه كتاب حيّ . لا نقرأ فيه عن أناس ، وإنما نرى فيه أناساً . كتاب كالمعرض أو كشريط السينما يجسم لك الحوادث ويبين لك من خلالها أبعاد المحاماة وفضائلها . وكاتبه الأستاذ الجندي يمسك بقلمه بإحكام فلا يدع خلجة إلا يحسن تصويرها ، ولا يدع زفرة إلا يجلوها للعيان .

وديع فلسطين

ظواهر الطرح الروحي

نشرت مكتبة الهلال في الفجالة هذا الكتاب لمؤلفه حضرة الأستاذ أحمد فهمي أبو الخير ويعرف كثيرون من القراء ان حضرة المؤلف توفر على دراسة العلم الروحي وألف فيه كتباً كثيرة وترجم كتباً أخرى عن اللغات الأجنبية . ولهذا العلم أنصار في أوربا وغيرها وله في مصر قراء متعددون . والكتاب الذي بين أيدينا يبحث في الأحلام والتواصل الروحي خلالها وطرح الروح خلال النوم والعقل الباطن والوحي والرؤيا الصالحة والموت الظاهري وعلامات الموت الحقيقي والغيبوبة والتخشب وظاهرة التلبثي والتجريب العلمي فيها والسيكومتري (تقصي الأثر في لوحة الفضاء والزمن) وكيف تتجسد الأرواح المطروحة وتتكلم . وفي الكتاب كثير من الصور . ولا شك في أن موضوعات الكتاب وما فيها من طرافة وجدة كفيلة بالاقبال عليه من المهتمين بالشؤون الروحية .

فهرس المقتطف

من المجلد العاشر حتى المئة

٣١٣ وطننا الشرق : اسماعيل مظهر

٣٢١ العائدون (قصة) : محمد عطية رزق

٣٣١ جريمة أم قساص (قصة) : ع . ش

٣٣٧ الوضع الاجتماعي : الياس يعقوب

٣٤٩ المرأة في البرلمان : نقولا الحداد

٣٥٣ أمس واليوم — حالة مصر الزراعية والقطن المصري : وديع فلسطين

٣٦٢ الجهر الكهربي : عوض جندي

٣٧٢ مكتبة المقتطف « الطب الوقائي . قصة النزاع بين الدين والفلسفة . الآداب السامية . تاريخ العصر الحاضر . أعلام الربيع . ١ — ٢ — ٢ — الموازنة بين الطائيين الآمدي ، محمد عبد الحليم أبو زيد — ١ — عصر الظاهرة — ٢ — صحيفة البلاد السعودية : العمران ، اختزال واكد — ١ — أشواك — ٢ — جرائم واغتيالات القرن العشرين ، وديع فلسطين ، ظواهر الطرح الروحي .

٢ — لحق

١٠١ — ١٤٤ المسرحية في عصر هرقي : تأليف محمود حامد شوكت

المسرحية في شعر شوقي

— ٣ —

تأليف

محمود عامر شوكت

ليسانس في الأدب الانجليزي
ودبلوم معهد التربية العالي وماجستير في الآداب

مطبعة المقتطف والمقطم
١٩٤٧

الفصل الخامس

علي بك الكبير
أو دولة المماليك

تتفوّق هذه المسرحية على المسرحيات السابقة من النواحي التمثيلية ، فقد قلّ فيها الاستطراد والحشو إلاّ في مواضع استرسلت فيها الشخصية في التعبير عن عواطفها ، وذلك في مواضع قليلة من المسرحية ، كما يحدث حين يشكو علي بك من خيانة أعوانه له ، وتتردد آمال بين الواجب والهوى . وقد برزت فيها ألوان الشخصيات الى حدّ لم يظهر في المسرحيات السابقة ، والتايت الحوادث انسياباً طبيعيًّا ، وتطورت تطوراً متصلاً ، تخللتها عناصر مسرحية تؤثر في الجمهور بالتشويق والتحليل والمفاجئات والتهكم في حدود الاحتمال الطبيعي للسياق . ومرجع ذلك إلى أسباب أهمها أنها مسرحية أعاد كتابتها الشاعر في الأعوام الأخيرة من حياته حين ألّف للمسرح . وقد أشار مترجم حياة الشاعر الى هذه الاعادة الثانية المسرحية في كتاب (اثنتي عشر عاماً في صحبة أمير الشعراء) للاستاذ أبو العز . وثانيها العناية التي يبذلها الشاعر في مؤلفاته الجديدة التي ألفها عقب تقدم مسرحيته السابقة . وثالثها أنه قدّمها الى لجنة في مسابقة عامة لاختيار أفضل المنتجات المسرحية كما ذكر في مقدمة مسرحيته .. ورابعها أنه وفق بالصدفة الى موضوع يناسب العرض المسرحي دون تغيير أو تبديل جوهري في الموضوع التاريخي .

وتذكر المراجع التاريخية كيف تغلب علي بك الكبير بذكائه ومهارته على غيره من المماليك وكيف استطاع أن يكون هيمناً للبلد عام ١٧٦٢ ، وكيف أعلن استقلال مصر عن الأتراك عام ١٧٦٩ ، واتخذ لنفسه لقب السلطان ، ويذكر التاريخ كيف قوّى نفسه باتحاده مع والي عكا ، وكيف أرسل حملات استولت على اليمن وجدة ومكة وسائر جزيرة العرب ، وحين انتوى

فتح سوريا عام ١٧٦٩ أرسل أحب أتباعه إليه ، وهو محمد بك أبو الذهب بجيش لفتحها وأراد بذلك أن يأمن على سلامة ملكه وملك خلفه والي عكا من السلطان . وقد نجحت هذه الحملة ، واستولت على غزة ونابلس والقدس ويافا وصيدا ، واستولت على دمشق بعد أن حاصرتها . على أن الأتراك استطاعوا أن يكسبوا بالسياسة والدهاء ما فقدوه في الحرب ، واستمالوا إلى جانبهم محمد بك أبا الذهب ، ومنّوه بتوليته على مصر ، فغادر محمد بك سوريا إلى صعيد مصر ليستعد لمحاربة علي بك . واستطاع أن يجتذب اليه الكثير من أتباعه . وصانر علي بك إن حليفه والي عكا ليجهز جيشاً يسترد به ملكه — على أن محمد بك أبا الذهب دسّ له في الطريق من دهمه وأسره فمات في الأسر بعد أيام سنة ١٧٧٣ ثم صار أبو الذهب فيما بعد على مصر من بعده .

وبنى شوقي مسرحيته على الجزء الاخير من هذه الحقبة . فبدأ بخيانة أبي الذهب لعلي بك وانتهى بوفاة علي بك وانتصار أبي الذهب .

وفي الفصل الأول يظهر علي بك ويتزوج آمال بعد أن يعجب بإبائها وشممها . ثم يضطر إلى الرحيل الى الشام ليمد عدته لمحاربة أبي الذهب ، تاركاً زوجته الجديدة حتى يعود ظافراً . ويدخل مراد بك الشاب ويحاول إغراء آمال فتصده عنها . ويكتشف مصطفى والد آمال أن مراداً ابن له قد بامه من قبل ، ولكنه لا يبوح بسره ، وإنما يكتفي بإبعاد مراد عن ابنته .

وهذا الفصل سليم من الناحية المسرحية ، إذ تقدم فيه أمامنا الشخصيات الرئيسية ، وتوضح بوادر الأزمات ، وينتهي الفصل بمفاجأة . ويتخلل الحركة فيه بوادر أزمتين ، تتصل الأولى منهما بالموضوع التاريخي العام ، وتتصل الثانية بالموضوع الخيالي . ويندمج الموضوع التاريخي بالموضوع الخيالي اندماجاً يجتذب انتباه الجمهور منذ البداية ، وتتخلل هذا الفصل بعض ألوان فكاهية لا تسوق سيره وتمثلها الماهطة وحواريها ، ويعتمد معظمها إمّا على التلاعب بالألفاظ ، وإما على المنظر الخارجي والصفات الحادة للشخصيات . ويتخلله أيضاً نشيد غنائي قصير لا يعطل سير العمل بشكل محسوس كما حدث في المسرحيات السالفة رغم قيمته الفنائية الخالصة .

وينتقل المنظر في الفصل الثاني إلى دكاكين تحمل قمس — جارية آمال إلى علي بك خبر

انقلاب أعوانه عليه ، ومحاولة مراد الاعتداء على زوجته . ويحاول سعيد الفتك بعلي بك بإيعاز من أبي الذهب فيفشل ، ويكشف لعلي بك عن حقيقة عمله ونوايا سيده . ويحاول تأييد الأصدقاء الروسي التدخل في جانب علي بك . فيرفض علي بك الاستعانة بمن يخالفه في الدين والقومية . ويعد علي بك وحليفه الشيخ ظاهر العدّة وحدهما لغزو مصر .

وهو فصل سريع الحركة يعتمد في التأثير على المفاجأة ، ويحرص على التطور النفسي للتاريخ والخيال ، وتأثرها ببعضهما . وتتمشى حوادثه مع روح العصر من محاولات الاغتيال ، والتعصب الديني والقومي ، كما تمهد أحداثه لحدوث الأزمة في الفصل الثالث .

ويبدأ الفصل الثالث بعرض صور الحياة في عصر المماليك في مصر ، تقوم على الفوضى والاضطراب والسلب والنهب واغتصاب الحقوق ، والغدر والخيانة ، والسير في ركاب المنتصر ونسيان فضائل المهزوم ، ونعلم بهزيمة الشيخ ظاهر والي عكا ، ويظهر علي بك جريحاً ، فيكشف الياسرجي لمراد وآمال عن العلاقة بينهما ، ثم يموت ، ويعلم علي بك بهذه العلاقة قبل أن يموت كما يعلم بها أبو الذهب .

ولا تحدث الأزمة في هذا الفصل دون تمهيد لها في بداية المسرحية ، وإنما تتطوّر في نطاق الاحتمال ، ولو أن المناظر الأولى لا صلة بينها وبين التطوّر الدقيق للموضوع . وتحدث المزعة خلف الستار ، على أنّ العرض العام للفصول والمناظر يبين تقدُّم شوقي الكبير في التأليف المسرحي ، وازدياد خبرته بوسائله ، ويمتزج بهذا العرض التحليل الإنساني للشخصيات ، ولو أنه لم يبلغ بعد عمقاً وغوراً بعيدين ، وإنما ينحصر في التحليل الذي يدور حول معاني تتصل بمعاني الشعر الغنائي التقليدي عن قرب أو بعد .

وما زالت الشخصيات المسرحية بسيطة التركيب والملامح ، وتتركب من الأهواء التي اتصفت بها الشخصيات المسرحية الأولى في مركب جديد . على أن لها ألواناً غير مختلطة أو متضاربة كما اختلطت وتضاربت في المسرحيات الأولى . ولعلّ مرجع ذلك إلى وضوح صورها التاريخية في ذهن المؤلف قبل أن يعمل فيها خياله .

فعلي بك بطل يجمع بين صفات نبيلة وعيب تنفذ منه المأساة إليه . وهو صورة متسقة ملحمية الأطر نيرة وفروق ، وهو أوفر من كليهما حياة لقربه من التاريخ القومي من

جهة ، وصلته بالتاريخ التركي من جهة أخرى ، ويتصف علي بك بصفات النبل وصفات الضعف ، وفي مقدمتها صفة الكرم .

فهو يقول لوكيله عن نفسه : —

أجل نحن أطعمنا الفقير ولم يكن ... له في قصور المترفين طعام
ونحن أشبعنا ابن السبيل ولم يكن ... يمل له فوق الطريق ادام
ونحن حضنا اليتيم نمسح دمعه ... وآواه منا محسنون كرام
ترى الزاد مبذولاً وفي كل ساحة ... يتامى تمرد حوله وقيام (ص٣٨)

كما أنه مصلح اجتماعي حاول إصلاح التعليم وبناء المستشفيات والملاجيء فيقول .

وبنى فركنٌ للثقافة والحجا ... يشاد وركنٌ للصلاة يقام
ودار يرامى البؤس فيها ومنزلٌ ... تداوى جراحات به وسقام
ورفق بالعجماء تأسو جراحها ... تفات على ساحاتها وتنام (ص ٣١)

على أن ذلك قد أدى به إلى أمرين ، أولهما فقر الخزانة ، فيقول له وكيله :

إن الخزانة أصبحت ... بنداك كالحجر الخرب
الفضة انقضت وما ... قد كان من ذهب ذهب
رمضان راح بنصفه ... والنصف راح به رجب (ص ٣٠)

وثانيهما استغلال أتباعه لطيبة خلقه وانتهاض أعوانه من حوله فيقول لبقير :

صبرت طويلاً يا بقير فما جلا ... ولا زال الصبر الجميل مصابي
ولو أنَّ رزئي بالغريب احتملته ... ولكن بأهلي نكبتي وعذابي
يطاردني في الأرض من دبَّ في يدي ... وربي في حجري وهبَّ ببابي
ومن طلب الدنيا بيأسي وسطوتي ... فما حواها في يديه صفا لي
ومن عفت أبنيه وأمر ركنه ... فصير هدمي منزله وخرابي (ص٣٤)

ويكرر علي بك هذه المعاني في أحيان كثيرة من المسرحية ، فيتذكر انقلاب اعوانه عليه فيقول لبقير :

ولكن أمور قد جرت وحوادث ... بنقلة دنيا أو تبدل حال

فقالي من كان عند إشارتي يصول بجامي أو يعيش بمالي
وعقّ الذي ربيت في حجر نعمتي ووطّأت أكتافي له وظلالي
تألف أصحابي وألب هيبتي عليّ وأغرى بالحروب رجالي
لقد جئت بإثم ليس لي فكأنما أتيت بأفعى من صحيق تلال
تفرّق عني الناس إلاّ بطانتي ولم يبق حولي اليوم غير عيالي
سأمضي وما عندي لهم إن تركتهم سوى قوت أيام وخبز ليالي
وقد زعم الناس الغنى في خزانتي أتى من حلال تارةً وحرام (ص٣٨)

ونكاد نرى هوتي خلف هذا الحوار ، ونحس مداعبه للملوك وإشادته بأعمالهم بين ثنايا سطوره ، ونرى فيه أصداء اشكاة أبطاله السابقين في المسرحيات الأولى ، فنرى فيه ألواناً من شكاة أنطونيو وكليوباترة وحزنهما وأسفهما على انقلاب الحظ ، مع أنه — على عيوبه — أقل اصطناعاً وتكلفاً من الصور الأولى للحوار ، وما زالت به بقية محاولة استثارة العاطفة عن طريق الشعر ، وما فيه من استرسال وإطناب في إنشاده ، لزيادة التوتر المسرحي .

ونكاد نرى في تطوره صفات النجم الآفل ، فهو يشعر بالخاتمة وهي تدنو ، وبه صفات من الخلق العربي الفهيم الكريم ، والعطف على من حوله . فقد رفع آمال من مرتبة الإماء إلى مرتبة زوجة الوالي . ونعجب منذ البداية بشخصيتها الأبية ، ذات الروح الوثابة التي تأبى أن تعامل معاملة الرقيق ، فتقول لعلي بك :

سيدي غير مأمنا بك أولى هذه السوق لم تلق بجلالك
تشترى النفس أو تباع على الأرض ولم يرض في السماء المالك ص ٢٤

وهي جريئة صريحة لا تخشى أن تقول لأبيها أمام الوالي :

قف ، أنت عبد المال يا أبتي تلقى البرى لأجل المال في النار
لا سيدي لا أبي لا تذكرا ثمناً فلست مخلوقة للبائع الغاري ص ١٧

وهي فتاة ذات كبرياء وأنفة تقول لمراد حين يعرض بها كرقيق :

سيدي من عنيت ؟ قل لي بمن عرضت ؟

فيقول مراد :

أعني المليحة للحسناء

فتقول له : سيدي إننا حرائر ما نرضا .

أمام هذه العصمات لا يملك علي بك إلا أن يعجب بها ، وسيقول لها :

لله الله يا آمال أنت كبيرة وكل كبير النفس صوف يسرد

فداؤك نفسي هذه نفس حرة وهذا إباء ما عليه مزيد ص ٤

ولا يملك إلا أن يتزوج بها .

على أنهما يتحركان في بيئة قويت فيها عناصر الشر والخديعة ، وتعددت فيها رصلها . فنرى في أبي الذهب والياً يعرف كيف يصرّف الأمور بالدهاء والخداع حيناً ، وبالمال حيناً آخر . وهو رجل وافي عملي لديه الغاية تبرر الوسيلة ، وهو يقابل في ذلك علي بك الذي أبى لاسترداد ملكه — الاستعانة بقائد الأسطول الروسي . ونلمس هذه الصفات في مواقف كثيرة يظهر فيها . فيقتل مملوك مملوكاً آخر أمامه لسبب تافه فيقول له :

لا ترع قد كان من حوب علي كفيتيه فقول اليوم ما كان بي

هيا احملوا جثتـــه هيا اذهبـــوا بالرجل ص ٩٧

ويخادع والي عكا ويراوغه فينظاهر بالعفو عنه إعجاباً به ، بينما يدبر له في الخفاء وسائل التخلص منه ويعلم ظاهر ذلك منه ويقول :

ذلك الغدر والمهالك فيهم من قديم الزمان غدر وختل ص ١٠٩

وتبرز من صور الشخصيات صورة الوفاء والمرأة — حتى ساعة الهزيمة — في شخصية الشيخ ظاهر والي عكا . فهو يجاهر أمام الوالي الذي غلبه بقوله .

أسروني ولو بقيت طليقاً .

محمد بك : ما الذي كنت صانعاً ؟

فيقول له : كنت تبلو

كيف أبني اللواء حول حليفي وأرم الصفوف إذ تضمحل ص ١٠٨

وتتحرك إلى جانب هذه الشخصيات صور أخرى لشخصيات ثانوية كالجلاب والمائطة والجنود ومراد ووالي عكا ، وقد مست مسّاً خفيفاً أبرز طبائعها العامة إبرازاً طفيفاً لم يحرمها قدراً ما من الحياة .

بل شعر المؤلف أن تغير العاطفة يستدعي تغييراً في التعبير ، فيصبغ وزنها وتصميمها بصبغة خاصة يتغير فيها الوزن والقافية ، فتقول آمال في نهاية الحديث :

لا . لا . رويدك يا آمال لا تثبي على الأمير ولا تجزيه طغيانا
واحمي حمى الليث في أيام غيبته إنّ اللباة تحوط الغاب أحيانا
أما هو الزوج يرعى حق غيبته وتجعل الحرة الفضلى له شانا
لقد أقامك في محرابه ملكاً لا تجعلي الملك المهدي شيطانا (ص١٨)

ونستطيع أن نلمس هذا التردد بين العاطفتين يتكرر بطرق مختلفة في الحوار ، وكأنما شعر المؤلف بقوته فأطنب فيه بعض الإطناب ، ونرى في هذه النزعة في النهاية صورة أبرع من الصراع في نفس ليلى بين الهوى والواجب ، فقد سبقت صورته الأولى في شكل بدائي في كليوبترة ، وهي موزعة بين أنطونيو ومصر في أكتيوم ، ونرى فيها حرصاً من المؤلف على جعل العنصر الخلقي المثالي يتغلب في النهاية.

ونلمس مثل هذا الصراع في نفس علي بك في مواضع خاصة ، فيثور في نفسه صراع بين الضمير والواجب ، وبين العاطفة والشهوة إلى الإنتقام حين يقابله قائد الأسطول الروسي ويعرض عليه خدماته . فيقول علي بك لنفسه :

مالي قعدت وتركيا مقهورة والروس حولي يحاصرون ودادي
أسطولهم بيدي وقائدهم معي سأصيب جندي عنده وعتادي
لا يا علي ، رويداً في الغضب ، إتئد ما تلك خطة حكمة ورشاد
ما ذا جنت مصر عليّ وأهلها إن الجناة عليّ هم أولادي

وفيه تتضح سمات الصراع السابق وتطوره في المسرحيات الأولى ، وفيها لا يكاد شوقي يحس بوجوده رغم تنازع عاطفتين قويتين متناقضتين في نفس أنطونيو وفي نفس كليوبترة وفي حديث كل منهما قبل الفصل في أمر نفسه وإقدامه على الانتحار ذكر للوطن يمثل جانب الواجب ، وذكر للحبيب يمثل جانب الهوى . وقد ورد الصراع بشكل بارد متتابع لا حرارة فيه ، رغم وجود فرصة نادرة لتمثيله ، وإنهائه بانتصار الجانب الإنساني العاطفي ، أو الانتحار على أنه هرب من هذا الصراع ، فيحيا المنظر وتحيا الشخصية .

وإننا لنرى كيف تقل بيوت الحوار وتتحرك بسرعة ، وكيف يتجزأ البيت الواحد أكثر من ذي قبل مسيراً لذلك سياق الحوادث ، ومنطق الشخصيات ، مثقل العناية بالتكامل جوانب الحوار والبيوت والقافية ، وإيراد التشبيهات والمبالغات المصانعة ، واشتراك أكثر من شخصية واحدة في الحديث في المنظر الواحد ، وتنوع المناظر في الفصل مع وحدتها العامة ، وعدم تفككك أوصالها. ونرى فيها مفاجآت تتوزع في ثنايا المسرحية بشكل لا يخرج على المحتمل والمناسب ، كما في محاولة سعيد اغتيال علي بك ، ومنظر مقتل مميش بك ، وكما في المفاجأة الكبرى حين يكتشف مراد علاقته بآمال ، وفيه تحل الأزمة التي عقدت في بداية المسرحية ، وفي ثناياها عرض الموضوع التاريخي .

على أنه من المناسب للتمثيل حذف حديث لا يحتمل أن ينشده جريح يودع الدنيا ، فعلي بك الكبير قد جرح ، وهو مشرف على الموت ، وليس من المحتمل أن يخاطب مراداً خطاباً فلسفياً عن أسباب ضعف المماليك وحاجتهم إلى الاتحاد ، فذلك شوقي يبرز من بين شخصياته سافراً ، ويحاول أن يستخرج العظة من التاريخ تشبثاً مع أسلوبه الخاص . ولكن هذه العظة لا تتضح إلا بعد تطور للحوادث وبعد انقضاء زمن طويل . وربما كان من المناسب حذف منظر الجند في عكا في بداية الفصل الثاني ، ففيه يستعرضون الحرب ومضارها وفيها يبرز المؤلف سافراً أيضاً ويدع شخصياته تتحدث عما لا يتصل اتصالاً رئيسياً بالموضوع ، وهو أقرب إلى الحفو منه إلى منظر من المسرحية .

على أن هذه المسرحية تبين تقدماً في فن شوقي المسرحي ، من حيث وجود عناصر المفاجأة والتهكم المسرحي ، وتطور الموضوع من عقده إلى حل ، ووضوح ملامح الشخصيات وسهولة الحوار ومرونته ، وتعدد لوحة الشخصيات . فإذا أسقطها في التمثيل بعد أن مثلت لأول مرة عقب تأليفها ؟

يرجع ذلك إلى اختيار الموضوع من حقبة لا تتصل بتاريخنا القومي اتصالاً قوياً دائماً ، إذ يعرض أمام الجمهور صفحات عصر مملوكي ، حكام مصر فيه أجانب عنها ، وتعرض أمامهم ما استلزم تصويره في العصر من ولاة يتنازعون على الحكم من أجل الحكم ، ولا يتصلون بالشعب المصري اتصالاً قوياً . فقد كان ذلك نصيب محمد علي الكبير بعد ذلك

وصحب تطور الحوادث والشخصيات حوار يتصف بالصفة المسرحية في معظم أنحاء المسرحية ، سيما في المواقف التي يطمئن فيها الشاعر إلى قوة تأثير الموقف والشخصية ، فيصير الحوار تعبيراً سهلاً طبيعيًّا لا تكلف فيه . على أن رواسب الاتجاه الغنائي ما زالت تلوح في بعض أماكن الحوار التي يحاول فيها المؤلف أن يضفي على خطورة الحادثة وشدة انفعال الشخصية تعبيراً غنائيًّا رقيقاً ، فتقوده إلى المبالغة والاسترسال ، ويظهر التكلف والحشو ، ويكشف شوقي المسرحي عن شوقي الشاعر الغنائي بشكل واضح . وسنجد صوراً لهذا الاسترسال بعد أن نتجاوز الأغنية الأولى التي يغنيها عشاق ، وفيها يذكر بلاده وهي تبدأ بقوله :

كوخ وراء الجبال مكلل بالخلود (ص ٤)

والنشيد الآخر الذي يغنيه حين يعقد على بك آمال ويبدأ بقوله :

غداً يعقد الوالي على الحسناء آمال (ص ٢٩)

فهما صورتان للنزعة الغنائية الصريحة ، في مسرحيات شوقي ، ويتصفان بما تتصف به أغانيه من تشبع بالموسيقى والعاطفة ، وقيامها بوظيفة غنائية خالصة في المسرحية ، ولا يتصلان بتطور الحوادث أو صفات الشخصيات أو يساعدان على تقدم حركة المسرحية ،

فقد عرفنا أن شوقي جارى بذلك المسرح المعاصر ، وتأثر بميل الجمهور إلى سماع الغناء وتتبع مزاجه الخاص . على أننا سنلاحظ فيما قصراً وخفة في الأداء واتصاله — الى حدّ ما — بالموضوع ، لا يظهرها بمظهر التكلف .

ولنصل بعد ذلك إلى صور هذه النزعة في حديث علي بك قبل أن يبارح قصره ويبدأ بقوله : —

سلامٌ على قصر الإمارة والغنى وأيوان سلطاني ودست جلالي (ص ٣٧)

فهي قصيدة طويلة كرر فيها المؤلف ما قالته الشخصية ص ٣٧ و ص ١١٧ من المسرحية ، وعيب مثل هذه الأحاديث الطويلة خلوها من الحركة المسرحية ، بحيث تتعب الممثل في الأداء وتثقل على أسماع الجمهور . ولنلحظ أن وزن هذا الحديث وصورته هي التي اتخذتها كليوباترة لحديثها الطويل قبل أن تنتحر وعن طريقها يحاول الشاعر إثارة جو الحزن والأسف

عن طريق الشعر ، لا عن طريق الحركة المسرحية وتمثيل الحوادث تمثيلاً مباشراً .

على أن مثل هذه الأحاديث لا تشيع وتكثر في هذه المسرحية ، كما شاعت وكثرت في المسرحيات الأولى ، وقلت بقدر وانتصرت على الأحاديث السريعة الحركة ، المتصلة بالقضية والحادثة ، وتشبعت بالحيوية واكتسبت صفة طبيعية ، رغم طولها أحياناً فتقول آمال لنفسها بعد أن طردت مراداً .

ويح لي ويح قد ثـورت عليه ... وتجاوزت في المروءة حدي
ما الذي استوجب الأمير وما ... أذنب حتى رددته شرّ رد
ويح قلبي يحبه . كذب القلب ... وبعداً لحب إلف بعد

فهي إنسان طبيعي ، ولم يحاول المؤلف تجريدها من تنازع العواطف ، ولم يحاول أن يصورها بصورة مصطنعة تتمشى مع قواعد الأخلاق ، ففي الحياة قد يغرينا الشر كما يغرينا الخير .

وآمال فتاة تزوجت بشيخ ، ويحاول مراد غوايتها ، وهو فتىً جميل ، على أن عاطفتها الخلقية تثور لهذه الفكرة ، فتقول لنفسها :

هو مستهتر مشى على حجراتي ... وتنامى أمانة الزوج عندي
لا . بل القلب شغله بمراد ... هو شغلي من الحياة وقصدي
رب ما لي أحسّ نحو مراد ... شغفاً زائداً ولوعة وجـد
وحناناً كأنه رقة العشـق ... جرى في دمي ولحمي وجلدي

وتتضح في هـذا الموضوع صورة للصراع بين الهوى والواجب ، حتى تتغلب فيها عاطفة الواجب فتقول :

لا ورب الجلال والحق آمال ... ارجعي للصواب آمال جدي
أنت من أمة تصون حمى الزوج ... وتقضي حقـه وتؤدي
ربي لا تجعـل العلاقة إلاّ ... من سـلام إذا التقينـا ورد
ربّ إنّ البـلاء مني قريب ... وأرى حفرة وأخشى التردّي
رب لا تقض أن أخون عليّاً ... كيف أهوى على هوى الزوج عندي (ص١٨)

ببضع عشرات من السنين . وعرض المؤلف أمام الجمهور صوراً لبيع الرقيق وضرائه ، وصوراً للنهب والسلب والخيانة والغدر . بل صوّر المؤلف الشعب تصويراً غير عميق ، إذ صوّره بصورة شعب جاهل يسير في ركاب المنتصر وينقلب على المهزوم ، رغم ما أسداه إليه من خير . ويكاد يجمع مؤرخو هذا العصر على أنه كان عصر هدم واسترداد ، لا عصر بناء وإصلاح في تاريخ مصر . بل لا يقارنون به عصراً آخر من تاريخ مصر في نزعة الهدم لا نزعة البناء . وقد اقتصر شوقي على تصوير الملوك والحكام والقادة دون أن يجنح إلى تصوير حياة الشعب فيصور نفسه وآلامه وآماله ، ولكن حكم على ذلك منشأ شوقي وحياته . ولو عاش بين الشعب كما عاش حافظ إبراهيم — معاصره — لتغيرت وجهات نظره ، وأتيح لنا الاطلاع على مسرحيات من نوع آخر ، ولأقبل على التأليف إقبال المندفع من داخل نفسه ، تدفعه فكرة ، وتسيره عاطفة صادقة عميقة ، ولأنتج لنا مسرحيات تحمل طابع الحرارة والشيوع .

على أن الباحث لا يسعه إلا أن يرى في هذه المسرحية مناظر جذابة تجتذب الجمهور وجودةً فنية تقدمها على المسرحيات الأولى . ففي نهاية الفصل الأول يرى الجمهور برادر الأزمة بوضوح ، وتطورها السريع في الفصل الثاني ، وحلها في نهاية الفصل الثالث ، فلا يرتخي توتر اهتمامه بمتابعة المسرحية . ويرى فيها تقدماً فنياً في مناظر مهد لها في مسرحياته الأولى ، فيجتذب اهتمامه مناظر الصراع بين آمال ومراد ، وقد سبقه نظيره في مصرع كليوباترة بين هيلانة وحابي ، وبين قيس وليلى ، ويدور الصراع حول حب يعترض سبيله حائل قوي . ويجتذب اهتمام الجمهور منظر الصراع بين علي بك وسعيد حين يكاد علي بك أن يقضي على خصمه ، وقد سبق هذا المنظر نظيره في المسرحيات الأخرى ، فهناك صراع بين قيس أو على الأصح زياد تابعه وبين منازل ، وبين ابن عوف وبين آل ليلى . ويجتذب انتباه الجمهور الصراع الأكبر بين علي بك ومراد بك ، ويتوقع الجمهور انقلاب حظوظه وتمتزج المفاجأة الكبرى في النهاية بنوع من التهكم المسرحي . إذ يعلم الجمهور بالعلاقة بين مراد وآمال ، بينما تجهلها الشخصيتان المسرحيتان ، وقد سبقه نظيره في مصرع كليوباترة ، حين تتحدث كليوباترة إلى أنوبيس عن حظوظ أنطونيو والجمهور ويعلم الجمهور أنه قد انتحر ، وله

نظيره في « مجنون ليلى » حين يتحدث بشر إلى قيس معزياً وهو يجهل أن ليلى قد ماتت ، بينما يعلم الجمهور ذلك . على أنه قد خط هـذا الصراع بعبارة تقدمت خطوات على قدرة الشاعر في المسرحيات الأولى .

بل إن المسرحية لتترك في نفس الجمهور معنى أعمق ، ومدلولاً أبقى أثراً ، فقد يتصارع الخير والشر ويتغلب الشر أحياناً . وقد يفعل المـال في النفوس فعل السحر فيشتري القلوب والضمائر . على أن تلك القيم الخلقية لا تتحقق إلاّ في مجال اجتماعي خاص . وقد كان في المجال الاجتماعي في عصر المماليك المضطرب ، ميداناً يجعل من الممكن تحقيق هذه القيم ، بل يجعل منها المثل الأعلى للناس .

فلئن عابت هذه المسرحيـة بعض العيوب العامة ، ففيها تقـدم ملحوظ في فن شوقي المسرحي .

الفصل السادس

عنترة

بين مجنون ليلى وعنترة وشوقي صلة روحية قوية . فالمجنون — كعنترة — شاعر يسير كل منهما عاطفة الهوى . ويعتمد فنهما على الغزل في جوهره ، ويستمد كل منهما امتيازه من البراعة في إنشاد الشعر . على أننا نلمس في المسرحية الجديدة عمقاً في التعبير العاطفي للشخصيات ، وإبرازاً لألوان البيئة ، ووضوحاً لمعالمها ، واستجابة الشخصيات لهذه البيئة وفيها تخصيص يقابل العمومية في التعبير والأداء في المسرحية الأولى . ونلمس في المسرحية الثانية حركة قد يبالغ في إظهارها الشاعر أحياناً ، وقد قلت الحركة إلى حدٍّ كبير في المسرحية الأولى . وموضوع المسرحيتين متقارب ، فهو صراع طبقتين مع حوائل . وبينما تتحطم الشخصيتان في المسرحية الأولى لوجود حائل روحي قوي من التقاليد تتمسك به إحدى الشخصيتين ، وتنتصر الشخصيتان في المسرحية الثانية لعدم وجود هذا الحائل الروحي ، ويستطيع البطلان تحطيم الحوائل المادية المجسمة وهم آل عبلة . ونلمس في حوار هذه المسرحية مرونة وتنوعاً وعمقاً لم نجده في المسرحيات الأولى .

وقد رجع شوقي ثانية إلى الأغاني يقلب صفحات البطولة فيه ، فاستهوى مواجه كشاعر قمة شاعر آخر هو عنترة ، الذي اتصف بصفات البطولة ، وصار قطعة من الأدب الشعبي بما نسج حوله من أقاصيص الشجاعة . واتخذ من عنترة بن شداد الذي لقب بالفلحاء لتشقق في شفتيه ، بطلاً لمسرحيته وبنى موضوعه على ما ذكره الرواة عنه ، من أن أباه احتقره لسواد بشرته ، ولأن أمه كانت حبشية ، وأبعده أبوه ، ثم ادعاه حين أغارت بعض أحياء العرب على بني عبس وأصابوا منهم ، واستاقوا إبلهم ، فتبعهم عنترة في جمع من عبس . وقال له أبوه . كرّ يا عنترة . فقال له : العبد لا يحسن الكرّ ، وإنما يحسن الحلاب والصر .

فقال له أبوه « كرّ وأنت حر » ؛ وقيل إنّ أباه ادعاه حين أغارت عبس على طيء وأصابوا منهم أنعاماً . فلما أرادوا القسمة قالوا لعنترة « لا نقسم لك نصيباً مثل أنصبائنا لأنك عبد » وطال بينهم الخطب حتى كرّت عليهم طيء ، فاستردّ عنترة . قال « أو يحسن العبد الكر ؟ » فقال له أبوه « العبد غيرك » واعترف به فكرّوا فاستنقذ النعم . واشترك عنترة بعد ذلك في حروب داحس والغبراء ، وفيها أغار على بني نبهان ، واطرد لهم طريدة وهو هيصم كبير ، وجعل يرتجز وهو يطردها . ثم تبعه وزر بن جابر النبهاني في فتوة ، فرماه وقال : « خذها وأنا ابن سلمى » وتحامل عنترة الرمية حتى أتى أهله ومات ؛ ويذكر البعض أنه مات في حرب مع طيء ، بعد أن سقط من على فرسه ، واختبأ في دغل فرماه بعضهم بسهامه . وقيل إنه مات وهو في سفر حين هبّت عليه ريح من صيف فأصابته وقتلته . على أن هذه القصة قد امتلأت بما نسجه حوله خيال الأدب الشعبي من حوادث البطولة ، وأنشد له المنشدون الرجز والشعر ، وقصوا قصته في مجالس العامة . وصار مثلاً أعلى للعاشق الشجاع العفيف البدوي الجريء .

واستجاب مزاج هوتي لهذه القصة ، واتخذها موضوعاً لمسرحيته صوّر في ثناياها البادية الجاهلية ، وحياة الغارات والحروب والشعر والصيد . وصوّر ذلك في أربعة فصول ، قسم فيها كل فصل إلى منظر ، وكل منظر إلى عدد عديد من المشاهد التي تتغير تبعاً لظهور شخصية جديدة أو لتغير في الحوادث . وقد انتفع من هذا التقسيم في تنويع الحوار ، وأقلع عن الاندفاع في تيار الشعر الغنائي والاسترسال فيه . ففي الفصل الأول يظهر عنترة ويشكو هواه ، ويمر عليه فتية من الحي يطلقون على شدة بأسه وضخامة جسمه ، ثم يهتف هاتف بطلوع النهار ، وتنشد فتيات الحي نشيد الصفا وهنّ يملأن جرارهنّ . ثم يظهر صخر إنه يسعى لخطبة عبلة ، التي لا تريد بغير عنترة بديلاً وتهوى صخراً فتاة أخرى هي فاتنة وبغير اللصوص فجأة على الحي فلا يتحرك عنترة إلاّ حين يصل إلى مسامعه استنجاد عبلة به ، فيخلصها من أيدي اللصوص ، ويشكو إليها هواه ، ثم يدخل عبده حاملاً ما استاده عنترة ثم يصطدم عنترة بصخر فيدور بينهما حوار ينتهي بانصراف الأخير مهزوماً .

ويتبع هذا الفصل الفصل الأول من مسرحية مجنون ليلى ، ففيه يتلخص الموقف،

وتظهر العوائق في سبيل حب عنترة وعبلة ، ويفتن الجمهور بأس عنترة وقوته الجسمية وقوة سحر بيانه . وهو فصل يحدث فيه التأثير بالوسائل المسرحية بعد أن اقتصرت في المسرحيات السابقة على الإنشاد والتلخيص ، ويرتفع الفصل نحو ذروة ثانوية يتوتر فيها ثم يحل ، على أن يترك العقبة الكبرى دون حل بعد ، ففيه مفاجآت ذاتية ، أهمها خطف عبلة ومداهمة الحي ، وموقف الشك الذي يقفه عنترة من الدفع حتى يخف لنجدة عبلة . وفيه حوادث تمثل تمثيلاً حيًّا مباشراً بدل أن كانت تقص وتحكى من قبل . وقد تعرَّض المؤلف لتصويرها بصورة عامَّة في مسرحيته السابقة وهي « أميرة الأندلس » ولعله لمس قدرتها على التأثير في نفس الجمهور ، وشهد لها رجال المسرح الذين استدارهم بقوتها . كما عني بإبراز صورة البطولة في عنترة ، وهيأت له الظروف التي يصير فيها محور اهتمام الجمهور .

وفي الفصل الثاني يخطب صخر عبلة بشكل جدي ، فيوافق أبوها على الخطبة ، ولكنه يشترط عليه أن يكون رأس عنترة صداقاً لها . وتستشار عبلة في أمر زواجها منه فترفض بعنترة بديلاً . ويعرِّض أبوها على الفور بعنترة ، وفي هذه الأونة يظهر عنترة وقد ساق أمامه إبلاً كانت متجهة إلى ملك فارس . ويلقي عبلة فيبثها هواه من جديد .

وفي هذا الفصل ، كما في مجنون ليلى ، يتحرك الموضوع نحو الأزمة ، وتبرز الحوائل ، ويصير نجاح البطلين مشكوكاً فيه . فيبرز منافس لعبلة كما ظهر منافس لقيس ، على أن احتمالات نجاح عنترة وعبلة في أمرهما قوية . فالبطلان مجمعان على تحقيق هدفهما ، مهما قام في سبيله من حوائل . ومعظمها يزول أمام القوَّة الجسمية ، وعنترة كفء لأن يتغلب عليها . على أن فيه مناظر لم يكن هناك بدٌّ من تكرارها ، وهي مناظر لقاء عبلة وعنترة ، وما يحدث فيها من شكاة . فهي مناظر متحدة متجانسة في شخصياتها وموضوعها ، ويحتال المؤلف حتى تبرز بصورة مختلفة في أسلوب عرضها . ففي كلا الفصلين ينتهي المنظر بلقاء عنترة وعبلة ، وبدليل محسوس على شجاعة عنترة وبأسه وصيده وغنمه .

ويبدأ الفصل الثالث بظهور عبلة غيرى تشك في حب عنترة لها . ثم يقبل عنترة فيتحقق مما تجد وتقتنع هي بصدق عاطفته نحوها . ويحاول العبدان اغتياله ، فيصرخ فيهما دون أن يدير وجهه إليهما ، فيسقط أحدهما ميتاً ويفر الآخر . ثم يظهر في الحي منافس

آخر لعنترة ، وهو ضرغام ، ويطلب الزواج بعبلة ، فيطلب منه الأب رأس عنترة صداقاً لها ، فيغضب ضرغام ويلوم والد عبلة على غدره . ثم يقابل عنترة مقابلة الحر للحر ويكشف له عن غرضه ، ويحكي له ما دار بينه وبين والد عبلة ، ويحتكم عنترة وضرغام إلى عبلة لتختار واحداً منهما ، فترضى لعنترة ، وتحدث غارة على الحي ، وبهذا ينتهي المنظر الأول . أما في المنظر الثاني فيقتل ضرغام ويقتل رسّام قائد الفرس .

وتبدو في هذا الفصل مناظر مكررة لجأ إليها المؤلف ليطيل في مسرحيته . فضرغام شبيه بصخر ، ويلقى ما لاقاه صخر . ولا يفترق عنه إلاّ أنه عربي نبيل وخصم شريف . وهناك عبلة في حب عنترة يبدو مصطنعاً قليلاً . ومنظر الصراع الآخر بين عنترة وضرغام وجيرش الفرس المغيرة ، منظر سبقت صوره حين خلص عنترة عبلة من المغيرين ، واضطر إليه المؤلف اضطراراً ليضع نهاية اصطنعية لضرغام ، الذي اضطر إلى قتله لعدم ضرورة وجوده في المسرحية بشكل دائم ، كما يقتل قائد الفرس حتى تنتهي قصة الإبل التي ساقها عنترة . فهذا الفصل ليس بضروري جدًّا لتطوُّر المسرحية ، ولن تنقص قيمتها إذا حذفت ويبدو غير طبيعي أن يموت عبدٌ من صرخة .

ونعود إلى تطور الموضوع الأصلي في الفصل الرابع . وفيه تقام الأفراح لصخر في حي بني عامر ، وزفّ ناجية إليه على أنها عبلة . ثم يظهر عنترة ومعه عبلة الحقيقية في نفر من قومه . ويكشف عن حقيقة الأمر . وتقوم بينه وبين الجمع مبارزة يتغلب فيها عليهم واحداً واحداً . ثم يرغم عنترة صخراً على التزوج بناجية ، فيتزوج بها غير كاره ، ويتزوج هو بعبلة . وبهذا تنتهي المسرحية .

وهذا الفصل هو الذي تحل فيه الأزمة . والمفاجأة طيبة ، ولو أنه كان من المستحسن أن يمهد لها بإظهار منظر يوضح ما فعله عنترة ، حتى يستطيع مسايرة حوادث الفصل الأخير بشوق وانتباه ، لما فيه من تهكم مسرحي . ويعلم الجمهور سلفاً بقوة عنترة الخارقة في النزال وقد تكررت أمامه صوراً كثيرة منه مما يجعله غير مدرك لقوته ، إذ فقد عنصر الجدة فيه على أن ما به من حركة ومناظر صراع وأفراح لا يفقده طرافته تماماً

والشخصيات في هذه المسرحية أكثر انسجاماً ووضوحاً في الملامح من شخصيات

المسرحيات السابقة ، وصار الشعر فيها تعبيراً طبيعيًّا في كلام عنترة ، ولم تفسد الحركة المسرحية بالاسترسال الغنائي كما حدث من قبل . وفي عنترة صورة للمثل الأعلى للبطل في الجاهلية ، والمثل الأعلى الشعبي . فهو بطل ضخم الجسم ، مهول القوة إلى درجة خارقة ، وهو فصيح ينقد الشعر الذي ينصب في تيارين رئيسين أولهما الغزل وثانيهما الفخر . ويتصف بصفات خلقية أهمها النبل والمروءة والشهامة . وهو بطل قد تقدم كثيراً على بطل مجنون ليل ، وصار مركباً في شخصيته ومعقداً في عواطفه . وزال من قيس جانب الضعف ، فصار قوة وبأساً وشجاعة في عنترة وبقي منه جانب الاخلاص للهوى . وفيه بعض من حريز بطل الأندلس في أميرة الأندلس ، وهو صورة منه ، فهو بطل صراع وحرب وقتال . على أن قوته تبدو غير طبيعية في كثير من المواضع ، وقد بالغ المؤلف في وصفها وهو أول من هذبها ، فعنترة منتصر على الوحش والناس مهما كثر عددهم ، ومرخ مرة فقتل عبداً بصرخته . وتميل عبلة إليه لصفات الشجاعة والبيان فيه ، فتقول لها .

ليت افتتانك لم يكن بشجاعتي وبفضلها
أوليت حبك لم يكن لقصائدي ولنبلها (ص ٦)

وهاتان الصفتان هما محور شخصيته ، وتبرزان بوضوح في المواقف المختلفة التي يوجد فيها ، فقد اقتبست عبلة الكثير من صفاته ، وتأثرت به في الجرأة وقوة البيان ، وتظهر شجاعتها حين تقابل اللصوص وتدافع عن نفسها ، فهي مسلحة بخنجرها دائماً ، وتقول حين يدهمها اللصوص :

خنجري أين خنجري اليوم مني هو ذا خنجري تعال أعني
حط عناني وحام عن قوس العز ى ورد اللصوص عني (ص ١٧)

وتقول لعنترة حين يلقاها على قارعة الطريق وحدها :

ربي معي وبصيري تحتي وهذا السلاح (ص ٨٧)

وهي تعجب بعنترة من أجل هذه الصفات . فتقول له :

كل يوم يقال عنترة أردى كميًّا وقام عن ضرغام (ص ٣٨)

وتصور مثلها الأعلى في الزوج بقولها :

أريد أجلادا شديدة القوى وصاعدا خشنا كجلمود الصفا (ص ٧٢)

وهو مثل أعلى شعبي أيضاً ، وتقوم خطابة في بعض العرب تدعوهم للوحدة تحت لواء عنترة ببلاغة نادرة .

وهي تحتقر في صخر عكس هذه الصفات ، فتقول عنه لعنترة :

جبان ذليل جاء عبساً وماءها يعرض للإبل المذاري ويفضح

فهي صورة من ليلى في حبها ، ولكن ليس فيها جانب تقليدي محافظ ، وكما يختلف عنترة عن قيس تختلف هي عن ليلى

ومالك والدها صورة من المهدي الذي يتمسك بالتقاليد ، إلا أنه ينقصه نبل وحبه لابنته ، ولا يريد أن يزوجها بعبد أسود جرياً على سنة التقاليد ، ويسعى للغدر والفتك به فيدس له العبدان ، ويؤلب عليه صخراً ، ويحاول أن يؤلب عليه ضرغاماً . على أن ضرغاماً صورة للبدوي الشهم الكريم الذي يعترف بمزايا خصمه ، وهو عفيف في حبه ، شجاع يحترم عنترة لمثل هذه الصفات ، وينازله منازلة الشريف والحر للحر ، ويدافع عن عنترة في غيبته رغم أنه منافسه . ويقول لمالك حين يحاول إثارة غيرته :

لم لا أخافه ؟ تخاف وترجى في الرجال الفضائل
وإن ابن شداد وان ذاع بأسه فتى ملء برديه عفاف ونائل
... لا لست حاسداً ولا أنا للنار الأكولة حامل
أأحسد من يحمي العفاف بماله ويأوي اليتامى ظله والأرامل
أأحسد من لا يعصم البيد غيره إذا زحفت من أرض كبرى جحافل
أأحسد من لا يعصم البيد غيره إذا افترقت تحت المسالك القبائل ص٩٧

وهو صريح يقول لعنترة ببساطة عن مقصده حين يسأله :

« جئت أخطبها » . فيقول عنترة « ما أجمل الصدق لم يلبس بإنكار » (ص١٠٢)

وحين يرفض عبلة الزواج به ، ويغار على الحي ، ينصرف ضرغام إلى ملاقاة المغيرين مع عنترة وهو لا يكتم له حقيقة . ويلقى حتفه في القتال .

وصخر صورة مناقضة لعنترة أو ضرغام . فهو جبان ، وحين يغار على الحي يهرب ، فيقول في أحدها :

الحياة الحياة النجاة النجاة
الفرار الفرار النار النار (ص ١٦)

ويختمي بأس عنترة فيقبل ناحية زوجاً له وهو يقول :

قبلت يا ظلم إن قبلت عامر
برمح يما شئت أنت هنا الآمر (ص ١٣٦)

واقد انتهم شوقي بتلك الأقسام العديدة التي أدخلها في تقسيم الفصول إلى مناظر ، ثم إلى مشاهد صغيرة في تضريف الحوار . فزادت المرونة ، ونال الاسترسال الغنائي وظهر فيه لون الشخصية ، وعبر عن المرقف تعبيراً فيه عمق في العاطفة وصدق في التعبير. فعنترة شاعر يتحدث غزلاً وفخراً أو يتغنى شعره بالحماسة . وقد يجمع بين هذه الصفات جميعاً في مواضع . يقول عنترة في بداية المسرحية :

على الصبح عني كيف يا عبل أصبح وأين يراني نجمه حين يلمح
أفي خيمتي كالناس أم في بيوتكم أبث الخيام الشوق وهو مبرح
أقبل أطناب البيوت وربما تلفت عن منهلة الدمع تسفح
أرى برقوفي في ديارك راحة كما يستريح ابن السبيل المطرح
أبوك غرير القلب لم يعرف الهوى ولم يدر ما يأسو القلوب ويجرح (ص ١)

أحيد عن الساري لكي لا يريكم وأتقي كلاب الحي عني فتنبح
فيا عبل قد طال التنائي وطاله متى يتدانيا الحوادث تسمح

إذا قارنا هذا الحوار من حيث صلته بالمرقف والشخصية بحوار الأبطال ونجواها لنفسها في المسرحيات الأولى ساعة الانفعال العاطفي لمسنا في هذه الأبيات تركيزاً في التعبير والتركيب وقوة الاتصال بهما أكثر من ذي قبل . ومعنى كيف تنوع الحوار واتخذ صورة أخرى ذات وزن وقافية وموضوع مختلف ، يبين إدراك الشاعر لعيوب الاسترسال في الحوار ، واعتماده على الشعر في التأثير ، دون أن يتصل بدواعي المرقف والشخصية ، بل يحاول أن يخفي عجزه وراء سيل من الشعر المتدفق الذي يعبر عن نفسه

أكثر ما يعبر عن الموقف المسرحي . فيصمد عنترة بعد حديثه إلى ربوة ويقول :

يا ليت حبك ينجلي لي حب القطاة لشكلها
أو حب قيرة الصفا لأليفها وخليلها
أو مثل حب نجيبة مجنونة في فحلها
ليت انثناك لم يكن بشجاعتي وبفضلها
أو ليت حبك لم يكن لقصائدي ولنيلها (ص ٦)

لقد انتقل شوقي من طور الذاتية في التعبير إلى طور الموضوعية فيها ، فابتدأ في إبراز الصور كما تتراءى لأنفسها ، وكما تستجيب لدواعي البيئة ، وتتلون بألوان العاطفة وتلك خطوة كبرى في تطور فن الشاعر ستراها تبلغ ذروتها في مسرحيته الأخيرة . وعبر الحوار عن الشخصيات وألوانها ضعفاً وقوة ، وتحززت بحوره وأوزانه وتعددت قوافيه ، ولم يعد الشعر متماسكاً بإيرادها متجانسة . ويتضح ذلك في المناظر العديدة في أنحاء المسرحية حيث تكثر الحركة ، كما في المنظر الذي يصور سعار الحوص على خيمة عبلة ، ومواقف الصراع والنزال ، وحين رأى المؤلف أنه لا مناص من حديث طويل ، احتال على ذلك بتنويع القافية والبحر . وفيه يسأل أهل عبلة عن مكانة عنتر بين قومه قبل أن يتزوج عبلة يقول مالك . —

مالك : أصيخوا لي أصاحبكم شجاع فعبلة تبغض الرجل الجبانا
أحدهم : كليث الغاب إقداماً وكرا إذا اعتقل المهند والسنانا
مالك : أصيخوا لي أصاحبكم جواد فعبلة تبغض الرجل البخيلا
أحدهم : يكاد ندى يديه حين يرمي ينسي حاتم السمح المنيلا
مالك : أصيخوا لي أصاحبكم جميل فعبلة تبغض الرجل الدميما
أحدهم : ألم تره . ألم تنظر إليه إذن لم تبصر الملك الكريما (ص ٥٣)

واحتال على إكسابه عنصر التشويق بإشباعه بالفكاهة التي تنبع من المبالغة في وصف خصال عنتر ، وهو كما يعلم الجمهور ، من قبل يتصف بعكس هذه الصفات ، ولكن هكذا طبيعة الخاطبين . وسيتطور هذا الجانب الفكاهي ويتسع فيما بعد في المسرحيات الفكاهية .

وإذا نظرنا إلى الأناشيد الغنائية ، وجدناها تتلون بلون الموقف ، ولا توجد لذاتها كما كانت من قبل ، ففي الفصل الأول يرد نشيد الفتيات حول البئر لظهور صغر وحديثه محسن وفي نهاية المسرحية يغنى نشيد في حفلة عرس . وأتت الأناشيد خفيفة لفظاً وتركيباً ، وسريعة في حركتها . ومن الممكن استغلالها في توضيح جانب من البيئة الجاهلية . ولعلّ الشاعر قد استباح لنفسه حرية التعبير والتصوير ، فلم يخضع لمزاجه ، وصبغ خياله بالاسترسال فلم يقتبس من شعر عنترة أو يتكىء عليه إلاّ في القليل ، وهو لا يكثر منه في هذا الشعر القليل الذي يأتي به ، بل لم يتعد بضعة أبيات وردت في نهاية المسرحية في حديث عنترة وهي :

لم أنس ذكرك والرماح تسيل من درعي وتصبغ مشفري بالعندم
(ولقد ذكرتك والرماح نواهل مني وبيض الهند تقطر من دمي)
فمضيت اعتنق الرماح لأنها خطرت كأسمر قدك المتقوم
(وودت تقبيل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبسم) ص١٢٢

وتشبعت فصول المسرحية ومناظرها بالمواقف التي تجتذب الجمهور وتساير ذوقه ، وفي مقدمتها مناظر العشاق التي لم تكد تخلو منها مسرحية من مسرحيات شوقي ، فالحب عاطفة عامة مشتركة في النفوس ، بل يعتبر البعض أنها محور الحياة ودعامتها . وقد لمست يد المؤلف هذه المناظر في مسرحياته السابقة ، وازدادت خبرته بتصويرها فأكثر منها في هذه المسرحية . ويرتفع في هذه المناظر مستوى شعر البطل ، ويستمد شوقي الوحي فيها من قدرته الغنائية وخبرته بمطالب الغناء وانشاد الشعر الغزلي . ونلمس في شعر عنترة عمقاً وتخصيصاً لم نجدهما في شعر العشاق السابق . وتكثر فيها أيضاً مناظر الصراع ، بل معظم هذه المسرحية قائم على صراع حي خارجي ، وقليل من الصراع العقلي . وهو يتجمع ويتدرق في ثنايا المسرحية حينما يلقى عنترة خصوماً ، وحينما يريد الشاعر إظهار جانب الشجاعة والبطولة فيه . وقد قادت هذه المظاهر الشاعر الى المبالغة والتهويل في ابراز هذه الصفة في البطل . فهو أبداً منتصر يفتك بأعدائه ويتلاعب بهم كما يتلاعب اللاعب بقطع الشطرنج . وقد اختفت الأزمة إلى حدّ كبير في ثنايا الشجاعة والبأس الخارق ، ولا يشعر الجمهور بقلق

على مصير البطل بعد أن شاهدته في منظرين من مناظر صراعه . وحبذا لو اقتصرت هذه المناظر على المنظر الأخير الذي يصارع فيه عشرة رجال فارس ويردي فيه قائدهم . ووجه اهتمامه قليلاً الى تحويل الموضوع من تطور خارجي للحوادث الى تحليل داخلي للشخصيات بحيث يلمس الجمهور فيه نوازع البطل من هوى وعزم يسير حركة الموضوع ، ويبرز الأزمة والحل ، ويمثل العمل تمثيلاً دقيقاً .

ولكنه هيمان الشعر الغنائي الذي كان يجتذب شوقي وهو يصور شخصياته وأحداثه فيصرفه عن التعمق في تحليلها ، وإكسابها صفة التخصيص فيميزها بين أفراد نوعها ، وحدا به الى الغاية بجودة الشعر فاتصل بنفسه أكثر مما اتصل بقلوب شخصياته . على أننا نلمس في هذه المسرحية غاية ما وصل اليه فن شوقي في تحليل الشخصيات والحوادث ومسايرة الموضوع لطبائعها ، وظهور ألوان البيئة فيه إلى حد غيّر شخصياته ووضح ملامحها الى حدّ كبير قياساً الى أيٍّ منه في مسرحياته الأولى .

ولم تمثل هذه المسرحية مرات متعددة كما مثلت بعض مسرحيات شوقي رغم احتمال نجاحها لصلتها بالمثل العليا الشعبية وحياة العامة من ناحية ، وجودة شعرها من ناحية أخرى . وربما رجعت معظم أسباب ذلك إلى تطلبها أنواع خاصة من الممثلين وأنواع خاصة من المشغلات وأدوات كثيرة تتصل بالحياة العربية الجاهلية ، وأدوات تستعمل في مواقف الصراع المختلفة . وربما رجع ذلك إلى تأخرها الزمني في المسرحيات التي ألفها الشاعر . على أنها أقرب المسرحيات العربية تمثيلاً للحياة العربية وفترة المعيشة فيها . وتصوير مثلها العليا ، سواء من جانبها الاجتماعي ومثله العليا من قتال وشجاعة ومروءة ، أو جانبها الأدبي من إنشاد الشعر الرفيع . وبتحوير غير عظيم في بعض المناظر والاستغناء عن بعضها يمكن للمخرج إخراج مسرحية جيدة متماسكة مندمجة .

الفصل السابع

أميرة الأندلس

مسرحية نثرية

هذه هي المسرحية الوحيدة التي كتبها شوقي نثراً ، أوحى بموضوعها إليه — فيما يرجح — زيارته لإسبانيا عقب الحرب الكبرى الأولى حين نفي إليها . فبعد أن ألف مسرحيتين تتصلان بالتاريخ المصري القديم : وهما مصرع كليوبترا وقمبيز ومسرحيتين تتصلان بالتاريخ العربي وأبطاله الشعراء : وهما مجنون ليلى وعنترة ومسرحية تتصل بتاريخ مصر في عهد المماليك وهي علي بك الكبير اتجه الى ذلك الركن العربي الذي وصلت إليه الحضارة الاسلامية . فكتب مسرحية نثرية عن الأيام الأخيرة لبني عبّاد في أشبيلية قبيل غزو المرابطين لها .

ويأتي ترتيب هذه المسرحية في التأليف بعد علي بك الكبير ، كما يضعها مؤرخوه . وتدل الدلائل الأدبية بها على صحة هذا الوضع . فقد امتزج بالموضوع التاريخي في مسرحية علي بك موضوع غير تاريخي اتصل به وتطوّر معه وانتهى بعده . على أنه لم يندمج معه اندماجاً كلياً ، ويتصل بحوادثه اتصالاً وثيقاً إلاّ في هذه المسرحية . فقد صار الموضوع التاريخي الرئيسي موضوع خيالي واندمج فيه وحرّك حوادثه وأكسب نهايته صيغة تتفق ومجراه .

وقد حدا الشاعر إلى ذلك عاطفته الخيالية الغنية ، وسعيه إلى التخفيف من وقع الكارثة التاريخية . ويدور الموضوع الخيالي ، كما دار في مسرحية علي بك الكبير ، على عاطفة الحب ومحوره لقاء العشاق وقيام حوائل تحول دون تحقيق آمالهما حتى تتهيأ ظروف اللقاء ويتحقق

الأمل . بينما سار الموضوع التاريخي سيره الأصلي دون أن يحوّر فيه الشاعر إلاّ في نهايته الخيالية ، وقد اتصل الموضوعان ببعضهما اتصالاً موفقاً منتظماً خلال الفصول الخمسة التي تنقسم إليها المسرحية . ففي الفصل الأول تقص بثينة على أترابها خطورة موقف أخيها في قرطبة ، وخطورة موقف أبيها في أشبيلية . كما تذكر قصة اقتائها بحسون التي التقت به في سوق الكتب . وبهذا ينتهي المنظر الأول . أما في المنظر الثاني فيقتل المعتمد رسول ملك الاسبان لفحته . وفي المنظر الثالث تزيل بثينة خصاماً ثائراً بين أمها الرميكية وأبيها المعتمد

ويقدم لنا هذا الفصل ، على تعدد مناظره ، الشخصيات الرئيسية ، ويلخص لنا الموقف ويبين بوادر الأزمات ، وبداية الاتجاهات التي ستنهجها الحوادث ، ويشعرنا بصور من اليأس الذي يسود البلاط ، وتضعف من الأمل في حل هذه الأزمات . ويعتمد هذا الفصل على التصوير التاريخي لحياة الملك وأهله ، وانحلال ملكه وكرمه وفوته البائسة أمام ملك الاسبان فهو يقتل رسوله ، وهو يعلم أنه لن يستطيع مقاومته .

وتتضح أحوال المجتمع المضطربة في الفصل الثاني ، نرى فيه صوراً للحروب الداخلية والاضطرابات الاجتماعية ، نرى حريز بطل الافلاس ، وفنديق ملك الاسبان أميراً له ، ونعلم أنه حمل معه كنوز طليطلة في مرج عاطل . ولا يخفى حريز أمره ، ويسطو بعض اللصوص على الخان بعد أن يحذروا القوم ، إلاّ واحداً كان صائماً ، ويكون المرج العاطل من نصيبه ، فيعثر على الجواهر في داخله فيفوز بها .

ويتسع الفصل الثاني لإبراز الحياة في العصر ، وفي تناياه يعثر ابن حيون على الكنز ، وهذه بداية تطور الموضوع الخيالي ، وعلى تتائجه تتوقف نهاية الموضوعين معاً . وبينما لا يوجد في الفصل الأول أزمة أو مفاجأة قوية ، إذ يعتمد معظمه على العرض والتخليص وتقديم الشخصيات ، يمتاز الفصل الثاني بما فيه من حركة في الموضوع ، ومفاجأة يرتفع الفصل إليها ، وتجتذب انتباه الجمهور رغم أنها تبدو غير محتملة الوقوع ، إذ تحدث بطريق الصدفة البحتة . ولكن لم يقصد شوقي إلى تصوير موضوع يتطوّر تطوراً داخلياً وإنما يجعله يتطور تطوراً خارجياً ، فيرى عوامل تخضع للصدفة ، بل كثيراً ما تتخلل أساليب القصة أساليب العرض المسرحي .

وفي الفصل الثالث ينقذ ابن حيون ، صاحب الكنز ، أبا حسون من الإفلاس ، ويدفي له على بيته الذي وشك أن يبيعه ويكتشف حسون أن زائره هو ابن دمين وهي بنت المعتمد ، ويبادلها حبًا بحب .

وهكذا يتحرك الموضوع الحياتي في الفصل الثالث ، وتبدو فيه حركة وحياة ، وتظهر فيه مشاجراته وأزماته الصغرى ، فهو جيد من الناحية المسرحية . على أن عيوبه هي عيوب الفصل الثاني ، وهي اعتماد الموضوع على عنصر الصدفة في حل أزماته . وليست الصدفة قانوناً شاملاً للحياة ، وانما تخضع الحوادث في الحياة العادية لعناصر السببية ، وهي الشخصيات وطبائعها تتجه الأعمال والأفعال .

وفي الفصل الرابع يجتاح ابن تاشفين أغمبيلية ، ويعزل المعتمد ، ويقتله مجيناً هو وأسرته إلى قلعة بأغمات ، ويستبيح رجاله المدينة وهكذا نرجع في هذا الفصل إلى الموضوع التاريخي ، الذي بدأ في الفصل الأول ، وتتطور حوادثه تبعاً للحقائق التاريخية ، وهو فصل أقرب إلى نهاية المأساة منه إلى نهاية الملهاة .

على أن الشاعر ، يجمع في الفصل الخامس بين الموضوعين ويصلهما ليخفف من حدة تأثير نهايتها . ففي المنظر الأول يعثر والد حسون على بثينة عند قائد مغربي ، ويخلصها منه ويهرب بها مع ابنه حسون . وفي المنظر الثاني تقصد الجماعة « أغمات » حيث يقيم المعتمد الأسير مع أهله . وفي المنظر الثالث تتاجيء بثينة أهلها بظهورها ، وتقص على القوم قصتها ويوافق المعتمد على تزويجها من حسون . ويظهر ابن حيون ويهب المعتمد ثلث ثروته وحسون ثلثاً آخر مع بثينة ، ويبقي له ولأبي الحسن الثلث الثالث . وبذلك تنتهي المسرحية

وهذا الفصل فصل المفاجئة الكبرى التي يظهر فيها ابن حيون . على أن عيبه هو عيب الموضوع عند شوقي بشكل عام ، إذ تتطور الحوادث تطوراً خارجيًا في الموضوع الذي ابتكره الشاعر ، وتكثر به عناصر الصدفة بل تتحكم في تسييره . والموضوع القوي يتحرك حركة منسجمة تتضح فيها الأسباب والنتائج ، وتتصل اتصالاً قويًا ، وتبرز الأعمال صائرة لأزمة الشخصيات ومفاتها .

وهذه الشخصيات عامة في تركيبها ، وهي أقرب إلى الأنواع منها الى الأفراد المتمايزة

الملامح في النوع الواحد . فالمعتمد ملك عربي شاعر يشعر بشعور العربي في غضبه وكرمه وشجاعته . وهو شاعر اشتهرت قبله فتاة جميلة بشعرها فتزوجها ، وقد أقبل على القهوة اقبالاً ضيع ملكه ، وبثينة ابنته فتاة فيها من كليوباترة حبها للأدب والعلم ومن آمال فضيلتها ، ومن ليلى هواها ، على أنها أقربهم جميعاً للحياة ، وهي — كأنها — أقرب إلى خلق أفراد الشعر ، فقد ورثته عنها ، وفيها من أبيها حبها للعلم . وابن شالب صورة لا بأس بها لليهودي الذي يفقد كياسته في سبيل المال ، وبقية الشخصيات الخيالية متصفة بصفات عامة ، فابن حيون متدين كريم ، وحسون وأبوه كرماء مهذبون ، وفيهم جميعاً صفات العرب من حب للجود والأدب والمروءة والشجاعة ، وهي صفات العربي وقد عبر عنها شوقي تعبيراً فنياً ذاتياً .

وقد كان هدف شوقي على ما يبدو هو العناية باللغة أولاً وآخراً أكثر من عنايته بالتحليل والتصوير للشخصيات . وقد اتجه الشاعر في أواخر حياته إلى استعمال السجع ، وهو أسلوب وسط بين الشعر والنثر — في أفكاره وأساليبه . فتعبيراته مقسمة تقسيماً موسيقياً لوحظ فيه حسن الصياغة ، وعباراته تدور حول التشبيهات والأخيلة البديعة . فجانبها الجمالي متفوق على جانبها العلمي التحليلي المنطقي .

ولم تخل المسرحية من آثار أسلوب شوقي المنثور في كتابه هذا ، ففي حوار المسرحية بعض السجع ، سيما حين تشتد عواطف الشخصيات ، وحين يطول الحوار ، فيحتال شوقي على تخفيف وقعه على الجمهور ، وتسهيل مهمة الممثل ، بإيراده بالسجع على أن المؤلف لم يكثر منه وظل أسلوب الشاعر من حيث الأداء واضحاً ، فهو يطنب في تفصيل الفكرة الواحدة في الحوار الواحد ، ويعبر عنها بطرق مختلفة تختلف فيها التشبيهات وتتزن الموسيقى تقول الأميرة (ص ١٥)

« ياويح أبي لقد نظرت إليه وهو في قصر السوسان الضيق الصغير بقرطبة فوجدته كئيباً متململاً ، كأن تلك السقوف المنخفضة لم تكن تليق برأسه العالي ، وكأن تلك الحجرات الضيقة لم تتسع لعينه السماحة . وكأنما كان يرى الزهراء أولى بأن تقله ، وأجدر بأن تظله ، وهناك دنوت حتى صرت خلفه . . . » .

وهذا مثال آخر من قولها: (ص ١٦)

«ملك جديد أضيف إلى ملك اشبيلية. ما أصغر المضاف والمضاف إليه، أنظر ابن عباد إلى العرش كيف صغر، وإلى الصولجان كيف قصر، وإلى الملك كيف اختصر، وتأمل الحكم في قرطبة كيف رد اليوم بالمعتمد، ومجلس الناصر كيف شغل بابن عباد».

وهذا مثال ثالث من قول المغربي. (ص ٨٢)

«ولكني أرمع سفراً شاقاً بعيداً. وما يدري ما وراء الغربة من الفجاءات، وما تدري نفس بأي أرض تموت». وقوله (ص ٨٢) ما أنا بالمساوم ولا بالرجل الذي يلتمس الفوائد لنفسه من مصائب الناس، ولكني جئت أخطب إليك الدار، وأجعل مهرها وما أقدر أنا لا ما تقدر أنت ولا الناس».

ومثال آخر من قول ابن حيوس (ص ١٠٨ — ١٠٩).

«إعلم أيها الملك أن هذا الضيف الذي نصرته ونصرك، وحالفته وحالفك، وقاتلت معه قتالاً يبقى حديث الدهر هو أهلٌ لأن يقدرك... وأنصح لك أن لا تملىء الأرض سريرك وأن تقطع السيف قبل أن يقطعك، وأن تقبض من فورك على ضيفك فتسجنه ولا تطلقه، حتى يأمر جنوده بمغادرة الأندلس برمتها وبحرها...».

وحين يطول الحديث لاحتوائه لقصته يستمر المؤلف في الحديث، ويحاول أن يكسوه بالعبارات البليغة، فالبلاغة، من رصانة الألفاظ إلى ارتفاع الأسلوب، وسيلة المؤلف للتخفيف من عبء النقل المسرحي لهذا الاطناب النثري. والأمثلة على هذه الأحاديث التي تحكي عن الحادثة دون أن تمثلها تمثيلاً مسرحيًا كثيرة، فيقص أحدهم على الملك قصة أبي الحسن وإفلاسه (ص ٣٤) وتذكر بثينة قصة حبها لأبيها لأنها بشكل لا يخلو من تكلف (ص ٥٢) ويقص ابو القاسم قصة حبه لزوجة المعتمد، وتركها إياه (ص ٥٨). وعيب مثل هذه الأحاديث الطويلة أنها لا تؤدي الغرض الذي وجدت من أجله ويضعف التأثير المراد بها لعدم تصويرها بالوسيلة المسرحية المناسبة، فالجمهور يضيق ذرعاً بالأسلوب الخطابي ولا يتابع الحوادث بعقله، وإنما يتابعها بحواسه وعواطفه أكثر من متابعتها بعقله، والوسيلة إلى ذلك بالتصوير المسرحي التمثيلي للحوادث لا بالحكاية عنها. ويضجر الجمهور

بدرعة بهذا العيب ، ومثل هذا النوع من الحديث ، فيفقد قيمته ومدلوله الذي توخاه المؤلف بالرغم من بلاغة تعبيره .

على أنه من الانصاف أن يقرر قلة مثل هذه المناظر التي تعتمد على الحوار وحده في المسرحية ، فاذا استثنينا الفصل الأول الذي تلخص فيه الأزمات برسائل القصة ، نرى معظم مناظر المسرحية الأخرى وقد صورفيها الحوار مهلاً سريعاً ، واللغة جزلة لا تنساب ذلك الانسياب اللغوي الذي لمسناه في الفصل الأول . بل نرى الفصل والمناظر وقد انسجم تركيبها ووضحت الأزمة فيها ، ثم تلتها المفاجأة . ومن هذه المناظر الجذابة مناظر لقاء حسون وبثينة المتنكر حتى يكتشف حسون حقيقتها وحقيقة عواطفها نحوه ، وفيها فيه من مناظر لقاء العشاق في المسرحيات الأولى . ومن هذه المناظر الجذابة مناظر الصراع والأبطال ، وكثيراً ما يحكى عنها ، إلا انها تصور تصويراً تمثيليًّا في الفصل الثاني ، حين يبرز حريز ومعه بطرس الأسير ومتعهد هذه المناظر لمناظر الصراع في مسرحية عنترة ، بل سيتسع فيصير محور موضوع المسرحية ، ومحور شخصية عنترة ، ومن هذه المناظر الجذابة تلك المناظر الكثيرة التي تتطور تطوراً منتظماً نحو المفاجأة ، ففي نهاية كل فصل من الفصول الأخيرة يتحرك الموضوع نحوها ، والجمهور على علم بتطورها ويزيد من اهتمامه بها ما فيها من تهكم مسرحي .

ولولا الاسترسال البلاغي الذي يوازي الاسترسال الغنائي في المسرحيات الغنائية السابقة والتطور الخارجي لحوادث الموضوع ، حيث تتدخل فيه عوامل الصدفة لاكتملت جوانبها . على أن هذه المسرحية ، رغم رقي لغتها تصلح للتمثيل بتعديل بسيط في بعض مناظرها واختصار الحوار في بعض الأماكن ، والاقتصار على تلك المناظر التي تستعرض الموضوع استعراضاً تمثيليًّا ، وهي كثيرة بعد الفصل الأول .

على أنه ينبغي أن نشير إلى اتساع في ناحية من نواحي فن الشاعر ، وهو الجانب الفكاهي . فقد اعتمدت الفكاهة في مسرحياته الهزلية على شخصية محترفة ترسل الفكاهة وقد يمسها لون المأساة مسًّا خفيفاً . ففي مصرع كليوبترة يقوم أنطو بذلك ، وفي مجنون ليلى يقوم بشر بهذه الوظيفة في بداية المسرحية ، وفي هذه المسرحية يقوم مقلاص بذلك .

على أن الشخصية الفكهة ذات حدين ، إذ تنقلب عناصر الفكاهة فيها إلى صورة من صور التهكم المسرحي المتسع الأفق ، فهي أداة للضحك والبكاء . فأشو في نهاية المسرحية يبكي عندما ينقلب مصير القصر وأهله من فرح إلى حزن ، وبشر يصير وسيلة حزن في مجنون ليلى ، فهو رسول دوت ليلى إلى قيس ، ومقلاص يعلم أنه سيفقد الأميرة ولكنه يضحي من أجل صفات لا يسر هو منها كثيراً . ومقلاص يرسل الحطة في الفكاهة ، ويطلق السخرية مختفية وراء ستار مكانته كمضحك للملك . وهذه الشخصيات المحترفة تفتح قلبها الجمهور على حقيقته ، وتكشف عن انسانية عواطفها . وتجدر الإشارة إلى جانب الفكاهة الذي يكشف عنه مقلاص في هذه المسرحية ، وهو أوسع جوانب الفكاهة في المسرحيات التي ألفت من قبل ، وتنبأ بما سيؤلفه الشاعر بعد ذلك من ملاهي عصورها هذا الجانب المضحك للحياة ، وسنرى امتداد هذه الناحية في الست هدى .

ولم يتبع شوقي تأليفه في المسرح النثري بعد هذه المسرحية ، ولعله لمس صعوبة هذا النوع من التأليف المسرحي . فالشعر أداة التعبير عن العواطف ، ومن السهل الوصول إلى نفوس الجمهور عن طريقه . وقد عولجت مواضع الاسترسال الغنائي فيه بالغناء المسرحي ، ولعله أدرك قصر النثر عن تأدية هذه الوظيفة ، فهو أثقل على السمع ، وأصعب في الإنشاد من الشعر ، إذ ينقصه عنصر الموسيقى ، ويبدو تشبعه بالعاطفة مصطنعاً .

ويرى بعض النقاد أن الشعر هو الوسيلة المناسبة للتعبير عن العواطف ، وان النثر يعبر عن الأفكار العقلية المنطقية العلمية الصالحة للملهاة .

وقد اجتذب موضوع هذه المسرحية أقلام بعض كتاب القصة المنثورة ، فاعتمد عليه علي الجارم بك في قصة «شاعر ملك» (عدد ٦ من سلسلة اقرأ) وقد أخذ حوادث القصة من المصدر الأول وهو تاريخ المقري في كتابه «نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب» ومن المرجح أنه قرأ مسرحية شوقي ، ووجد في موضوعها قابلية للعرض القصصي ، واتساعاً للتصوير والتحليل ، فكتب قصة ساحرة متسعة الأرجاء ، صور فيها جوانب العصر ، وشخصيات الشخصيات ، تصويراً تفوّق على تصوير شوقي إلى حدّ كبير .

الفصل الثامن

الست قدرى

ملهاة

لأول مرة في مسرحيات شوقي نرى مسرحية تنبع حوادثها من شخصياتها ، ويتطوّر موضوعها من طبائع هذه الشخصيات وأمزجتها في إنسجام لا حشو فيه ولا استرسال. ولم يكن ذلك نتيجة تطور في فنه ، ملاحظة الجمهور والوسائل المسرحية للاتصال به ، أو ترتيب الفصول والمناظر والمفاجآت والأزمات ، وإنما يرجع إلى اتجاه الشاعر إلى الحياة يستمد منها الوحي والإلهام في التشخيص والتصوير . ففي الحياة لمس الشاعر الناس يحيون أفراداً كالجزر في بحر متسع ، لكل فرد ذاتية ، وسلوك تتفق مع هذه الذاتية . ومن هذه الذاتيات ينتج سلوك يستطيع الكاتب المسرحي الذي أن يصوره في مسرحية توضح ناحية من نواحي السلوك الإنساني كما تظهر في هذه الذاتية، وتلك ظاهرة عامة أساسية في تطوّر فن الشاعر ، خلف فيها التاريخ والتصوير لشخصيات أدركها وأحسّ بها إحساساً عامًّا دون أن يتجاوز في تحليلها الى ما وراء عناوين التاريخ وأوصافه العامة التي لا تميز فرداً عن فرد أو شخصية عن شخصية .

وعاشت شخصيات هذه المسرحية حول شوقي في حي الحلمية بالسيدة زينب ، حيث عاش حقبة من الزمن ، وتلك صور من الحياة في أواخر القرن الماضي في هذا الحي الشعبي ، وأتاحه تزخر بها المسرحية وتحيا فيها الشخصيات . لقد وصل الشاعر أخيراً إلى مفتاح الأدب المسرحي ، وهو الإنسان كما يعيش جده وهزله ، وكما يوجد في بيئة يستجيب لها ويسلك فيها والحياة زاخرة بالصور الإنسانية ذات المدلول الطريف العميق ، يجلوها الكاتب وينقيها ويحركها في عالم خيالي إلى نهاية تبعاً لطباعها وسلوكها ، فتبرز صورة مصغرة للطبيعة البشرية

وعالجها أمام الجمهور ، بارزة المعاني واضحة السمات ، تشخيصاً وتصويراً .

فقد عرض شوقي في مسرحيته ، قصة سيدة مزواج حريصة ، تزوجت بعدد من الرجال الذين أتوا إليها طمعاً في مالها ، رغم أنها عجوز كبيرة الجسم ، ومات أزواجها قبلها واحداً في أثر الآخر ووثبتهم هي .

ففي الفصل الأول تستعرض السيدة مع جارتها أزواجها التسعة الذين تزوجتهم ، وكل زوج ذو شخصية وطبع مستمد من الصور التي وجدت في الحياة الواقعية . وعرضت لمهنة كل زوج ورأيها فيها . ثم يحضر آخر الأزواج ، وهو محام مفلس صكير فيمها ويريد إكراهها على إعطائه النقود . فترفض إعطاءه شيئاً فيحاول أن يستعمل العنف فيشير عليه كاتبه باستعمال الحيلة ، ويذهب هو إلى سيدته فيخبرها بأن زوجها على وشك الإفلاس ، وقليل من المال يصلح حاله ، فترفض السيدة وهي ثائرة لإهانة زوجها لها ، وتثور ثورة المحامي ، فتستغيث السيدة بنساء الحارة فيحضرن ويضربن المحامي ، وتطلقه السيدة إذ أن عصمتها بيدها ثم تطرده .

وفي الفصل الثاني تتزوج برجل ريفي ضخم الجثة ، وتعرض صفاته أمام الجمهور عرضاً فكاهيًا تصف فيه حركاته وسكناته ، ويستدين الزوج أملاً في تسديد ديونه من الميراث ، وفي الفصل الثالث تموت الزوجة ، وتلوح براوق الأمل أمام الزوج فيتطلقه الناس ويقد المعزون . ويترحمون على المتوفاة ، ومنهم الفقهاء والقصوص والفقراء الذين اتخذوا الرثاء مهنة لا شعور فيها ولا إخلاص . وتنفض الوصية في النهاية ، ويقرأ القوم فيها أن الزوجة قد وهبت بعض ثروتها لقبر الرسول ، والبعض الآخر للخدم والجارات ، فيمسك الدائنون بالزوج ويتناولونه بالضرب .

ومثل هذا الموضوع ناجح على المسرح ، ففي الفصل الأول تعرض اتجاهات الحوادث وتقدم الشخصيات ويلخص الموقف وتصور براوق الأزمة . وفي الفصل الثاني يتحرك الموضوع نحو الأزمة ، وفي الفصل الثالث تحدث المفاجأة الكبرى والانقلاب المسرحي .

وتتسع اللوحة لتصوير نماذج من الشخصيات الحية وتعرض عرضاً أو تمثل تمثيلاً مسرحيًا ، وكلها مستقاة من الحياة وتنبض بها ، وتكاد تلمس في كل منها سمة خاصة مميزة

تكسبها الحياة والقوة ، وتشعرنا بأننا نحس بوجودها ونفسها كما نلمس الشخصيات التي نراها حولنا ، ولعيش معها بعض أعمالها وتوجهها بعض منها

فالسيدة سيدة جاهز مجبور ، تعلم أن الناس تسمي إليها ملطا . فهي حريصة عليه لا تفرط فيه ، وإنما تعني كل من حولها من جارات أو خادمات أو أزواج بما سيجب له في الوصية ، دون أن تبذل له شيئاً . وهي سيدة كسائر النساء ، يتقدم بهن السن فلا يعترفن بالزمن ، فالسيدة هدى زادت على الأربعين ، ولكنها تزوجت أزواجاً تسعاً ، زوجاً زوجاً ، وما زالت في العشرين . وتكاد تزعج حين تتاجأ بحديث عن عمرها . تقول السيدة لزينب الجارة :

الست : أنت يا زينب الوفية بالعهد .

زينب : ولِمَ لا أفي وخيرك عندي

نحن من أربعين عاماً على خير جوار بين اثنتين وود

الست : لا بل العهد لا يزيد على الـ مشرين خلي حسابه لا تعدي

اسمعي زينب اسمعي يا صديقتي لك هذا الدبوس

زينب : لي أنا

الست : بعدي

أنا أعطيت كل صاحبة شيئاً وأنصفت في الوصية جهدي (الفصل ١ ـ ص ١)

ولعلها تخشى جاراتها وتخشى أقاويلهم وتهكمهم على تعدد زواجها رغم كبر سنها . فتقول:

يقولون في أبري الكثير وعقلهم حديث زواجي أو حديث طلاقي

يقولون أني قد تزوجت تسعة وأني واريت التراب رفاقي

وما أنا عزريل وليس بعالمهم تزوجت لكن كان ذاك بمالي (١ ـ ص ٢)

وتستعرض في ثنايا حديثها قصة هؤلاء الأزواج استعراضاً يصورهم تصويراً جيداً من ناحية ، ويكشف عن نفسها من ناحية أخرى ، فتذكر ما أعجبها فيهم ، وتبين ما تهوى نساء العصر في أزواجهن من مزايا . وهي أوصاف تخترقها الفكاهة التي تتبع من الشخصيات وعاداتها الشاذة عن المألوف في السلوك الاجتماعي ، فأول الأزواج مصطفى .

حين يمشي تظنه نخلة المرج ماشية

وخليفة صوداء معاوية مدورة
رحمة الله عليه لم يكن يطلب مالي
لم يكن يبغيه من ذاك سوى قبض الإجارة
مات فكدت أموت حزناً وكان عمري عشرين عاما
ثم تزوجت بعد خمس فنذا يرى فعلتي حراما

فهو زوج غير مادي . ولذا وافقها طبعه . أما الثاني فقد كان مفلساً سيء السلوك تقول عنه :

وزوجي الثاني علي ما كان بالصالح لي يا ليتني لم أقبل
ذاك لمالي اختارني واخترته لمساله
ما كان إلاّ مفلساً وقعت في حباله
يرحمه الله وكان ذا بخر وكان إن يقعد وإن يقم يخر
وان مشى تخرج أصوات أخر
يرحمه الله لقد عشنا معا من السنين الصاخبات أربعا ثم مضى لربه لا رجعا
رحمة الله عليه جنّ بالليل جنونا
ثم لما مات ما خلف لي إلاّ ديونا
ومات لم تبكه عيوني وكان عمري عشرين عاما
ثم تزوجت من سواه فنذا يرى فعلتي حراما

وزوجها الثالث عمدة جنّ بالها لا بها ، وكان قذراً تصفه فتقول :

وكان إن تنخما أرسلها الى السما فلست تدري ما رما
وكان يحط رجلاً فوق رجل ويسرح فيهما يده طويلا
ويخرج من أسابعه خيوط من الأوساخ يبرمها فتيلا

وكان الرابع أديباً لم يعجبها وهي المرأة الشعبية التي تهوى في زوجها ضخامة الجسم والقوة والبأس ، ولا تهتم بما يقوله عن بناء شخص أو هدمه ، على أنه .

كان إن أفلس لا يسألني إلاّ ريالا

فهو فتوح طيب .

وزوجها التالي برزباشي مقاصر سكير لم تمكث معه إلاّ ثلاث سنوات . وطلقته ولم يزل سنها عشرون عاماً . ثم تزوجت بموظف لم ينظر إليها وإنما نظر إلى حليها وذهبها والزوج التالي فقيه أحبت به لأنه أدّبها وأخضعها ، ورأى ترابا طائفاً بجبهتها فظنها أطلت من النافذة فضربها فأعجبت بغيرته عليها . على أنها كرهت منه اهتمامه بأمرها ، ثم تزوجت بمقاول اشتغل في الحجارة والجير ، وعاشت معه عامين ثم طلقته ، وزوجها الأخير عمام عاطل سكير ، وبعده يتحرك الموضوع في هذا العرض المكتظ . ونرى فيه شخصيات تذكرنا بشخصيات الشاعر الانكليزي تشوسر في قصته « حجاج كانتربري » ، وفي كلا العرضين نرى شخصيات عديدة تنصح من بينها وعاداتها افصاحاً فكاهيًّا .

وإذا انتقلنا من هذه الشخصيات الى شخصية الحاي وتابعه نرى الحاي شخصاً يسب ويصخب ويلعن وهو يرتقي السلم سكراناً فيصيح يدعو زوجته بقوله :

أأنت بومتي هنا ؟

الآن يا جميزة الحي أريك من أنا

ولم ترد عليه فيقول :

هدى هدى أين هدى أين العجوز البالية
أين مضيت بومتي أين ذهبت ختني
خذّاك شقدمان قد أسلتا وأذناك عقربان من قنا
وحاجباك والخطوط فيهما كدورتين أكثفتا من الدما
وبين عينيك شمار وجفا عين هناك خاصمت عيناً هنا

وهكذا في زوجها الثاني الربي ، ثم في شخصيات المزين من أهل الحي فالفقهاء الذين امتهنوا تلاوة القرآن كحرفة تدر المال ، ومن المزين اللصوص الذين يترصدون على العقيدة ، ويسلبون أدوات القهوة ويدسونها في جيوبهم ، والمتملقون للزوج الذين يترددون إليه دون معرفة سابقة حتى اذا ما قضت الوصية انقلبوا عامّين .

ونلمس في هذه المسرحية خضوع الحوار خضوعاً يكاد يكون تامًّا للحوادث

والشخصيات . فيقل فيه الاسترسال الغنائي والحشو في المناظر والفصول : وإنما يندمج مع الموضوع والشخصية في وحدة متكاملة . ولن نلمس فيه ذلك الحوار الطويل الشبيه بالقصيدة المتعددة في البحر والقافية ، وإنما نلمس مرونة قوية جداً في إدارته ، وتنويع بحوره وأوزانه تبعاً لموضوع الحديث أو اختلاف العاطفة ، دون أن تفقد الشخصية المتحدثة مميزاتها ، أو تتغير معالمها . ففي بداية المسرحية تلخص الست هدى علاقاتها بأزواجها وحياتها معهم في حديث طويل على الجمهور ، لا يحس بطوله لأنه يعبر تعبيراً مناسباً عن الموقف ولا يحس بملل من الشعر فيه إذ تختلف البحور والأوزان ، بل تخترع الحوار عناصر الفكاهة المتتابعة المتلاحقة التي تنبع من الموقف والشخصية بدل أن كانت تنبع من التلاعب بالألفاظ في المسرحيات الأولى .

ولم يعد في المناظر والفصول حشوٌ لا لزوم له . وإنما تتتابع الفصول الجذابة المتلئة بالحياة والحركة فلا يرتخي توتر اهتمام الجمهور ، فيسر الجمهور برؤية الشخصيات الشعبية الفاذة ، وتصطدم أمزجتها فيثور من ذلك الضحك . ومن ذلك المنظر الذي تلتقي فيه الست هدى بزوجها وبتشاجران فتستغيث بنساء الحارة وتستعين بهم على طرده ، ومن ذلك وصفها لأزواجها ، ومن ذلك الانقلاب النهائي في نهاية الفصل الثالث حين يكشف الموقف عما لا يتوقعه القوم ، ومع ذلك يتمشى مع مجرى الحوادث السابقة ويتفق مع احتمالات تطورها في كل موقف من هذه المواقف عنصر فكاهة .

على أن هذه الفكاهة قد نبعت من منابع مختلفة . فبعضها ينبع من أمزجة الشخصيات التي فيها ناحية شذوذ وتتصف معظم الشخصيات الرئيسية بالمراءات واظهار خلاف ما تبطن . فالسيدة بخيلة حريصة على المال ، وهي عجوز لا تعترف بكبر سنها . والطابي يلوم زوجته على قبحها وهو مفلس ثمل — والأزواج والمعزون كلهم مراءون يتظاهرون للسيدة بالحب والتودد ، بينما هم في الواقع ، وكما تعلم هي يحبون مالها . وتلك أرقى عناصر الفكاهة في المسرحية لصفاتها العقلية . يلي ذلك مناظر تنبع منها الفكاهة لاصطدام الشخصيات ، على شذوذها ، اصطداماً تستعمل فيه وسائل خارجة عن الشخصية والحادثة لتثير الضحك . وهذه الوسائل تستعملها الملهاة الرخيصة . وتكثر في المسرحية في مناظر الاشتباك حين تستعمل النعال

والمكائد وتنطلق فيها الألفاظ المضحكة المثيرة التي تطلقها الشخصيات الرخيصة .

على أن هذا لا يمنع من أن هذه المسرحية هي درة انتاج شوقي في الملهاة ، وخير مسرحياته جميعاً في سبك الموضوع والقدرة على التشخيص وإدارة الحوار إدارة مسرحية ، فقد ابتدأ فن شوقي في المسرحيات الأولى بمحاولة الاجادة في عرض فصول الموضوع ، ثم سعى الى إكساب الشخصيات لوناً خاصاً ، وانتهى باخضاع الحوار لها في مسرحيته الأخيرة . وبقي عليه أن يتدرّج في رفع القيمة الفنية لمسرحه فيتطور معه من مسرح خارجي تسير الحوادث الخارجيـة إلى مسرح داخلي يسيره التطور الداخلي للشخصيات . ولم يمهل القدر شوقي لتأليف المسرحي فيما بعـد إذ لم يتمم مسرحيته التالية وهي « البخيلة » التي أستمد موضوعها أيضاً من الحياة المحيطة به . لقد وضع المؤلف في النهاية يده على مفتـاح التأليف المسرحي ، وهبط من المسرح الغنائي المترف الذي يرتفع إليه العامة والجمهور ، إلى الجمهور يعطيه سروراً للحيـاة من حوله ، تعرض عرضاً مسرحيـاً هادئاً .

الفصل التاسع

المسرح بعد شوقي

أعقب وفاة شوقي حركة متسعة الأفق في الترجمة والتأليف المسرحي . وتأثرت الترجمة بالتأليف والتأليف بالترجمة . وأعيدت ترجمة المسرحيات الغربية وتوخى المترجم الدقة والرقي الأدبي في ترجمته . وقد عكف على ترجمة هذه المسرحيات أقلام التقطت لها ، ومن بين هذه المسرحيات المترجمة ما يأتي

طرطوف	لموليير	ترجمها	أحمد الصاوي محمد	عام ١٩٣٢
حنا	لكورني	»	خليل مطران	١٩٣٣
جرنجوار	لبانتيل	»	صبري فهمي	١٩٣٣
أندروماك	لراسين	»	طه حسين	١٩٣٥
البخيل	لموليير	»	محمود مسعود	١٩٣٣
لير	لشكسبير	»	ابراهيم رمزي	١٩٣٣
ترويض النمرة	»	»	»	١٩٣٣
عدو الشعب	لابسن	»	»	١٩٣٣

وتمتاز الترجمة الجديدة بأمانة لم تتوفر في التراجم الأولى على أنه من الواضح أن التراجم الجديدة لم تستهو الجمهور كما استهوته التراجم التي عربت لتلائم ذوقه — ولم يكن رقيباً دائماً — ولم يتذوق الترجمة الجديدة إلا الخاصة من المثقفين . ويزداد هذا الجمهور المثقف زيادة بطيئة ، وبازديادة يزداد عدد من يعنى بالقيم الفنية للمسرح . وقد زاد اتصال مصر بالثقافة الغربية بعد الحرب العظمى الأولى ١٩١٤ — ١٩١٨ ، وقوي عقب الحرب العظمى الثانية ١٩٣٩ — ١٩٤٥ .

وكانت نتيجة ذلك أن انتشرت كتب تعنى بالتمثيل والممثلين . عملية ونظرية رمنها مجلات « المسرح » لمحمد عبد المجيد حلمي و « المسرح المصري » لاسماعيل وهبه . وكتب محمود خليل كتاباً عن فن التمثيل ١٩٢٤ ، وألف مسرحية « ملامه وسلمى » وهي تمثيلية غنائية تصوّر أخلاق العرب وعاداتهم . وكتب عثمان جمدي سنة ١٩٢٠ كتابه « في عالم التمثيل » وترجم « هملت » لفكسبير و « الملاحات الغضبة » لسترارت وشنج . وأصدر محمد تيمور كتابه « حياتنا التمثيلية » وفيه أرّخ فيه المسرح المعاصر ، وألف مسرحيات مثل عبد الستار أو الهاوية وألف توفيق الحكيم « سر المنتحرة » و « نهر الجنون » و « رصاصة في القلب » و « الخروج من الجنة » و « أمام شباك التذاكر » ، ونشر مقالات عن المسرح لتوجيهه . وقد جمع بعضها في كتابه « تحت مصباحي الأخضر » ، وبدار الكتب مسودة لكتاب « مفكرة في التمثيل » لحسين شفيق ، تعرض لتاريخ التمثيل في الشرق والغرب .

على أنه لم يسلك مسلك شوقي في التأليف المسرحي الغنائي أحد من الكتاب من بعده مباشرة . وإنما اتجه المسرح نحو التأليف المسرحي النثري بشكل عام ، ومثل هذا الاتجاه بوضوح الأستاذ توفيق الحكيم . ثم ظهر بعد شوقي بنحو من خمسة عشر عاماً كاتب نهج منهج شوقي في كتابة المسرحية الغنائية ، وهو عزيز أباظه باشا ، فألف مسرحيته الأولى « قيس ولبنى » وقد مثلت في دار الأوبرا الملكية في نوفمبر عام ١٩٤٣ ، وألف مسرحيته الثانية ، التي مثلت بالأوبرا أيضاً عام ١٩٤٥ .

وبين المؤلف الجديد وبين شوقي شبه قوي لا يخطىء ، فقد ابتدأ كل من الشاعرين حياته الفنية بالتأليف الغنائي ، فكما ألف شوقي « الشوقيات » ، أخرج عزيز أباظه ديوانه « أنات حائرة » ، ثم اتجه كلاهما إلى المسرح ، وابتدأ بكتابة المسرحية التاريخية الغنائية .

وقد اطلع المؤلف الجديد على مسرحيات أوربية ، كما اطلع على مسرح شوقي . وتدل الدلائل على أنه قد استفاد مما وجه إلى شوقي من نقد ، فاستطاع أن يتلافى ما وقع فيه شوقي من مزالق إلى حدّ كبير . وقد أدى اتصاله المباشر برجال المسرح إلى عنايته بأسس المسرح والتشخيص وتمثيل الحوادث تمثيلاً مباشراً ، وابراز تطور الموضوع نحو الأزمة ثم حلها ، وللمشاهد الجديد حساسية وإرهاف في المشاعر يمكنه من تصوير منابع الحزن تصويراً عاطفيًّا

رقيقاً ، وقد ظهرت بوادر هذه الحساسية ، وقدرته على التحليل النفسي ، وألوان عواطفه المحبوبة ، وقدرته على تصوير العواطف والأهواء في ديوانه الأول .

وقد ساعد على ذلك ما حدث له في حياته الخاصة برفاة زوجته . وأثار ذلك نفسه إلى التعبير الفني عما يجيش بنفسه ، ووجد في الأدب مخرجاً . فليس الشعر لديه ترف وزينة ، وإنما هو تعبير صادق لعواطفه التي أذكتها حوادث حياته الخاصة . وإننا نلمس ذلك في المواقف المسرحية التي يظهر فيها محب محروم ، أو هوى متقد ، أو ذكرى وشكاة وحسرة على سعادة فائتة .

وحذا المؤلف حذو شوقي في إحياء تراث الأدب العربي فألف مسرحيته الأولى « قيس ولبنى » التي تشبه من وجوه كثيرة مجنون ليلى . على أن المؤلف اتكأ على رواية أخرى إنسانية محتملة الحدوث والتطور . وهي على تشابهها في بعض المواقف والشخصيات قد اتجهت اتجاهاً صحيحاً يتفق ومطالب المسرح . فقسم مسرحيته في فصول خمسة ، عرض فيها قصة قيس بن ذريح مع لبنى التي أحبها وتزوجها ، ثم أرغمه أبوه وأمه على تطليقها ، فتألمت نفسه ، وتزوج غيرها وتزوجت غيره وهما على حبهما ، ثم التقيا ثانية وتزوجا من جديد . وصور الموضوع عن طريق شخصيات واضحة المعالم والسمات ، ترجو له البراعة في التعمق في تحليلها وتعقيدها . ففي الفصل الأول تتحدث لبنى مع جاراتها عن أخبار قيس ويتحدث والدها ابن حزم عن شؤون السياسة ، وفي النهاية يقبل قيس ومعه ابن عتيق ، الذي يتوسط له من قبل الحسين لدى آل لبنى ، فتقبل الوساطة ويتزوج قيس ولبنى . وفي الفصل الثاني يعرض قيس ويئس من مرضه ، وتبدأ بوادر الأزمة في الظهور ، فيظهر والداه سخطهما على لبنى التي استأثرت به ، وتحتج الأم بأنها لا تنجب نسلاً ، وما يزال الوالد والوالدة بولدهما حتى يطلق زوجته كارهاً . وفي الفصل الثالث يشرد قيس في البادية وترحل لبنى إلى ديار أهلها ، وقيس يشهد رحيلها بقلب متصدع . وفي الفصل الرابع تلمس الحب في نفس العاشقين ما زال قوياً ، ويهدر دم قيس ثم يعفى عنه ، وتعلم لبنى في النهاية بزواجه . وفي الفصل الخامس يلتقي قيس ابن الملوح بقيس ابن ذريح ويلتقي بهما ابن عتيق ، ويقابل الجماعة زوج لبنى الجديد ، وهو كثير بن العدلت الذي يغتري منهم مهراً ويدعوهم الى

خياله . ويحس العاشق إحساساً غامضاً بلقائه بليلى ، يلتقي بها ويعانيها وتعانيه ، ويتوسط مجنون ليلى وابن عتيق لقيس لدى كثير ، وما يزالان به حتى يحكم لبنى في الأمر ، فتكشف عن مكنون عواطفها ، فيطلقها زوجها ، ويلتقي العاشقان من جديد .

فقد قسمت الحركة المسرحية ووزعت في فصول خمسة متصلة ، ولا يفاجأ الجمهور بحظ دون أن يلمس بوادره من قبل ، وتسير الحركة بانتظام في كل فصل ، كأن كل فصل مسرحية صغيرة تتطور نحو أزمة صغرى وتحل وتحوي في نهايتها بوادر الأزمة التالية ، ويتحرك الموضوع ويتطور تطوراً طبيعياً انسانياً عتملاً في الفصل الثاني والثالث حتى يبلغ الأزمة الكبرى في الفصل الرابع ، وتحل الأزمة في الفصل الخامس . وهكذا نرى موضوعاً ذا قيمة إنسانية خالدة يتطور نحو أزمة تحل مما لم نلمسه في مسرحية شوقي بوضوح

ونرى سمات شخصيات المسرحية واضحة المعالم ، ولو لم تكتسب التعقيد والعمق الذي بعد . ولبنى عاشقة نلمسها حية وتشعر بخلجات نفسها ووحدة عواطفها . والأم تشعر لشعور الأم نحو ولدها الوحيد ونحو زوجته التي تنافسها في حبه وتغار منها وما تزال بابنها حتى يطلقها ، وعزة فتاة صريحة متذكية تعرف ما تريد نفس صديقتها ، وتحاول أن تحيله مزاحاً . وقيس عاشق موزع بين أهله وزوجته ، يحبيه ذلك الصراع الدائم في نفسه ، ويكاد يحطمه ولا يستطيع منه مهرباً ، حتى تتدخل شخصية أخرى لتنقذه . ونلمس في ذبيح والد قيس حنان الأب على ولده ، وضعفه أمام زوجته ، وطاعته لما تشير به . وهناك صورة من منازل في مجنون ليلى ، على أنه صورة أقرب صدقاً إلى نماذج الطبيعة البشرية في خيرته وضعفه وحيرته وسلوكه . وتسير حول هذه المجموعة مجموعة أخرى من الشخصيات الثانوية ، كطارق ومطيع وقيس بن الملوح ، وكثير ، نرى فيها كائنات حيَّة على ضيق مجالها . ففي هذه اللوحة نماذج حية قصد الكاتب إلى تصويرها وتحليل نفوسها تحليلاً دقيقاً مثابراً ، ولم يدفعه عن ذلك الاسترسال الفني الذي لجذب إليه قلم شوقي ، فزلَّت قدمه في مواضع كثيرة عن الطريق السوي إلى التأليف المسرحي .

ولا نلمس في الحوار حشواً واسترسالاً قصد به الشعر لذاته وإنما هو حوار يقتضيه الموقف فهو قصير حين يوجد التوتر النفسي والمفاجأة ، وهو طويل حين تحس الشخصية

ويحتاج الموقف إلى التنفيس العاطفي دون اطناب مخل وتتعدد الحوار أفقاً متصلة بالموضوع وملوّنة بلونه دون أن تفسد تطوره وحركته

وألف المؤلف بعد ذلك مسرحية ثانية هي « العباسة » عرض فيها لقصة البرامكة والزواج الصوري للعشر والعباسة ، وتحوله إلى زواج غير صوري ، والمؤامرات التي تدبر للبرامكة حتى تودي بحياتهم ، وإنا نلمس في هذه المسرحية التي صقلت ولم تطبع بعد ، صفات فن الشاعر كما ظهرت في مسرحيته الأولى .

على أن الحركة المسرحية الظاهرة لا تتضح ولا تتوفر في كتاباته كما تتضح الحركة المسرحية النفسية ، بل يوجد من المناظر ما يكاد يدور حول الحوار النفسي الخالص . ومن الشخصيات ما لا تحلل عواطفه تحليلاً عميقاً معتمداً ، وإنا لنرجو من شاعرنا ، وقد مهد له طريق بتكييف الشعر للمسرح ، وبعد أن استطاع هو أن يتقن توزيع العمل المسرحي في الفصول والمناظر ، ان يكثر من المشوّقات والمفاجآت والحركة التي تزيد المسرحية حيوية ، فنحن نعيش في الحياة بإدراكنا وعواطفنا وأعمالنا ، وكل من هذه النواحي متصل بالنواحي الأخرى وناتج عنها . ونرجو لشاعرنا ألا يتردد في أن يختم مسرحيته بنهاية منهجمة إذا لزم الأمر ، فقد اضطر في المسرحية الأولى أن يساير عاطفة الجمهور ، لينهي المسرحية نهاية سارّة ، فتأتي بما لا يتفق وحياة العرب وما لا يساير منطق الحوادث .

ولم لا يذهب شاعرنا إلى الحياة الواقعية ويضع يده على ما يكتنف فيها من صور حيّة رائعة ، وفي الحياة ألوان من آلام الناس وآمالهم وترهاتهم وزواتهم ، والناس في الحياة يعيشون أفراداً متمايزة ، معقدة مركبة ، فليعش شاعرنا بين أفراد الشعب وليحي حياته إذا أراد لنفسه مسرحاً انسانيًا خالداً ، يحمل لواء رسالة كتاب الانسانية الخالدة .

خاتمة

على أن مسرحنا ما زال في بدايته . ويتعرض لمنافسة الخيالة لرخص أسعارها ووفرة إنتاجها . وتحاول الدولة أن تعين فرق المسرح وتشجع مؤلفيه ، ويحاول النقاد أن يرفعوا من شأنه في كل مناسبة في الصحف والمجلات . ولا غرو فهو فنٌّ أكثر تمثيلاً للحياة ، وإشباعاً للنفوس ، وهو يمثل الحياة تمثيلاً حيًّا بأبعادها الثلاثة ، مما لا يتوفر للخيالة .

ولكن المسرح فن شعبي ، منبعه نفوس الناس ، وموجه إلى الشعب ، فلم يذهب كتّابنا إلى بطون التاريخ ويتكلفون عناء ومشقة في استخراج موضوعاتهم وإحياء شخصياتهم ، وأمامهم ميدان الحياة فسيح ، إن في الرجل العادي ، وفي الحياة اليومية لمآسي وملاهي توحي بالمبدع . فليعش كتابنا بين الناس ، وليحيوا حياة الناس ، وفيها ما فيها من آمال وآلام ، وليتغنوا بالنفس الإنسانية الخالدة إن أرادوا لفنهم خلوداً .

وإن صار لنا مثل هذا المسرح الشعبي ، فلسوف تتركه ينمو ويتأصل .

مراجع

١ — المسرح الاوربي :

a — Theory of Drama : A. Nicoll
b — European theories of Drama : B. H. Clark.
c — Dramatic values : C. Montogue.
d — Tragedy : A. Thorndike.
e — Principles of comedy and dramatic effect : Fitzgerald
f — A history of literary criticism in the renaisance : J. E. Spingarn
g — Poetics : Aristotle (translated by Butcher & Bywater) .

٢ — المسرح المصري القديم :

ا — على هامش التاريخ المصري القديم . عبد القادر حمزة باشا ج ٢ ص ١٧ (طبعة دار الكتب المصرية عام ١٩٤١)

ب — الأدب المصري القديم . سليم بك حسن ج ٢ الفصل الأول (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . ١٩٤٥)

ج — مذكرة في التمثيل . حسين شفيق : مخطوطة بدار الكتب

٣ — ظواهر مسرحية في الأدب العربي المصري : —

ا — نجم الاسلام : الأستاذ أحمد بك أمين ج ١ (لجنة التأليف)

ب — صهاريج اللؤلؤ : السيد توفيق البكري . فصل الوفاة في العادات .

ج — المواعظ والاعتبار : المقريزي ج ٢

٤ — المسرح المصري الحديث : —

ا — حياتنا التمثيلية : محمود بك تيمور ج ٢ (الاعتماد سنة ١٩٢٢)

ب — مجلة المسرح . محمد بليغ — السنة الأولى

٥ — مسرح شوقي :

ا — شعراء مصر وبيئاتهم) للاستاذ عباس محمود العقاد .

ب — قميز في الميزان . « « « «

ج — إثنى عشر عاماً في صحبة أمير الشعراء للاستاذ محمد عبد الوهاب أبو العز .

د — أبولو : عدد خاص عن شوقي عام ١٩٣٢ .

ه — حافظ وشوقي . طه حسين بك .

و — المقتطف : نوفمبر وديسمبر ١٩٣٢ : مقالات للاساتذة إسماعيل مظهر ، وعبد الله صادق الرافعي ، وصاحي الجريديني .

ز — مسرحيات شوقي : (الست هدى : مخطوطة)

فهرست

صفحة

٤ مقدمة — المسرح الأوربي : المسرح اليوناني . المسرح الروماني . المسرح في العصور الوسطى . المسرح في عصر النهضة . المسرح الكلاسيكي والرومانتيكي . الدراما الحديثة . النقد المسرحي

١٢ الباب الأول ١ — ظواهر مسرحية في الأدب المصري القديم : اكتشافات كورت وكرنتز وسليم حسن . مميزاته

١٤ ٢ — ظواهر مسرحية في الأدب العربي : الأسواق الجاهلية . تمثيلية الحسين . الوعظ التمثيلي . خيال الظل

١٩ ٣ — المسرح المصري الحديث : المسرح في عهد الحملة الفرنسية . المسرح في عهد اسماعيل . دور التمثيل . فرق التمثيل . التأليف المسرحي أثره في شوقي

٢٨ الباب الثاني ١ — شوقي ومسرحه . مقومات حياة شوقي تقليد شوقي وتجديده . مركب شعره . مركب مسرحه

٤٩ ٢ — مصرع كليوباترة : مصادر الموضوع . الشخصيات الرئيسية والثانوية . الحوار . شوقي وشكسبير

٧٤ ٣ — مجنون ليلى : شوقي والأغاني . الشخصيات . الحوار . انتهاء مرحلة الاقتباس

٨٩ ٤ — قمبيز : موضوعها . شخصياتها . حوارها . عيوبها ومحاسنها . ابتداء مرحلة الاستقلال

١٠١ ٥ — علي بك الكبير : مراجعها . الموضوع . الشخصيات . الحوار . تقدم فن شوقي المسرحي وأسبابه

١١٣ ٦ — عنترة ومجنون ليلى . الموضوع . الشخصيات . الحوار

١٢٣ ٧ — أميرة الأندلس : تجربة نثرية . مراجعها . الموضوع . الشخصيات . الحوار . نهاية المسرح التاريخي

١٣٠ ٨ — الست هدى : شوقي والحياة المعاصرة . الموضوع . الشخصيات . الحوار

١٣٧ ٩ — المسرح بعد شوقي . التيار النثري والتيار الغنائي . أثر شوقي في مسرحيات عزيز أباظة . قيس ولبنى — العباسة . المسرح والخيالة . المسرح والحياة . خاتمة

وكلاء المقتطف ومحلات الاشتراك

في القاهرة والقطر المصري ادارة المقتطف بشارع الفاصد — باب اللوق
في بيروت — سوريا — جورج افندي عبود الاشقر ص.ب رقم ٩٢٩
في طرابلس الشام الاستاذ عبدالله الياس حسني
في دمشق — شملان — الشهداء الاستاذ السيد حمدي القواص
في شرقي الاردن — عمان } الاستاذ يعقوب عودات
وفي فلسطين } القدس الشريف باب السلسلة
في حمص — سوريا الخوري عيسى اسعد
في حلب شارع السويقة السيد عبدالودود الكيالي وأولاده أصحاب المكتبة العصرية
في حماه نقولا افندي حريصي دائر — صيدلية الهلال
في حماه السيد طاهر افندي النمساني

في الارجنتين
Mr. N. J. Nuzer
Avenida de Mayo 1370
Buenos Aires, Rep. Argentina

في الولايات المتحدة والمكسيك وكندا وكوبا
Mr. Naguib Shehadi
9012 Narrows Avenue
Brooklyn N. Y—U. S. A.

قيمة الاشتراك في المقتطف تدفع مقدماً

من سنة

١٢٠ في القطر المصري والسودان
١٤٠ في سوريا ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن والعراق (بريد عادي)
٧ دولارات لأميركا الشمالية
٩ دولارات لاميركا الجنوبية وجمهورية الأرجنتين
وفي سائر الجهات ٣٠ شلناً

ملاحظة | يخصم ٢٠٪ من قيمة الاشتراك للاساتذة والطلبة الذين يرفقون طلبهم بشهادة من مدير المدرسة بتخصصهم

مطبوعات المقتطف

في ادارة المقتطف طائفة من أفيد الكتب العصرية والعلمية والروايات الادبية

٤٠ الفتح مستر للاستاذ فؤاد صروف	٣٠ تراث مصر القديمة
٥٠ معجم الحيوان : لفريق الدكتور أمين باشا المعلوف	٢٠ رجال المال والاعمال : للمقتطف
٣٥ فصول في التاريخ الطبيعي : للمقتطف	١٥ رواية امرة المكاترا
٣٥ مختارات المقتطف	٣٥ نوادر مجيدة من الثقافة الاسلامية
٤٠ الرواد : للمقتطف	٣٠ علم الاجتماع الديني ليوسف شلحت
٤٠ رواد الشرق العربي	٢٠ سفر قريش : للاستاذ علي أدهم
٣٠ الناطقون بالضاد في أميركا	٢٥ معجم الاحلام : جزء اول
٢٠ خيوط الغرام : ديوان شعر	٢٥ القضايا الاجتماعية : للدكتور شهبندر
	٤٠ موكب الحياة ٣٨ قصة طالبة
	٤٠ المنتخبات الجزء الثاني : للطبي السيد باشا

هذه الاسعار يضاف اليها ٢٠ ٪ اجرة البريد في داخل القطر المصري وخارجه

المقتطف

يوزع في

في فلسطين : شركة فرج الله

في لبنان والشام : شركة فرج الله وحتي اخوان

في العراق : محمود حلمي

JANUARY — MAY 1947

يناير — مايو سنة ١٩٤٧

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

لمنشئيها

الدكتور يعقوب صروف والدكتور فارس نمر

أنشئت سنة ١٨٧٦

المجلد المائة بعد المئة

AL-MUKTATAF

A MONTHLY ARABIC SCIENTIFIC REVIEW

Edited by : Ismail Mazhar

VOL. 110

Founded 1876 By Drs Y. Sarruf & F. Nimr

وجه

تاريخ الفلسفة الأدبية
في العصر التوسيط ٨١
تاريخ مصر في عهد
البطالمة ٨١
تراجم اسلامية ١٥٧
ترجمة الامام أحمد
ابن حنبل ٨١
جرائم واغتيالات
القرن العشرين ٣٨٢
ديوان أحلام الربيع ٣٧٥
ديوان العرائس ٢٤٠
ديوان ليالي الشاطىء ٢٣٩
ديوان وابل وطل ٢٤١
دفاع عن العلم ١٥٨
رباعيات عمر الخيام ٢٣٦
الرسالة الخالدة ٧٦
روضة الطفل ١٦٠
سادهانا أو تحقيق
الحياة ٣٠٩

وجه

السلام الاجتماعي ٨١
سجائف مطوية ٧٤
صور من التاريخ العربي ٢٣٧
الطب العربي ٣٧٢
ظواهر الطرح الروحي ٣٨٣
عصر الاعتراكية ٣٠٣
قصة النزاع بين الدين
والفلسفة ٣٧٣
كيف نسوس حياتنا
بعد الخمسين ١٥٥
الله ٣٧٦
مدونة جوستنيان في
الفقة الروماني ٨١
مصر الظافرة ٣٧٩
الملل والنحل ١٢٢،٣٥
الموازنة بين الطائيين ٣٧٧
النار الخالدة ٣٠٧
الناطقون بالضاد ١٦١،٨١
نبي الاسلام ٨١

وجه

وطنيتي ٨٨
يسألونك ٧

(ن)

نتحدى ٢٩
النساطرة في آسيا
النظائر وكيمياء النبات ١٦٢
النظارات (المدصات)
اللاصقة ٢٦٧

(ه)

هذي هي الأغلال ١٥١
الهواء تسخيره ومنافعه ٢٢٧

(و)

واجب الشاب العربي ٤٩
الوضع الاجتماعي ٣٣٧
وطننا الشرق ٣١٣

فهرس المجلد العاشر بعد المئة

من المقتطف

وجه

(ا)

الآب انستاس ماري الكرملي ١٤٩ ، ١٩٥ ، ٢٩١
الأثر النبوي في الفن القبطي ١٣٦
أحاديث الاهتمال التجارية وكيفية تسجيلها ٣٠٠
الأدب ثورة فيه . احمل قلمك ١٧٩
الأدب الرخيص ١٧٧
الأديان أصلها ٢٥١
الاستحمام وفوائده الصحية والطبية ١٤١
أشعة ما دون الأحمر والتخاطب بها ٢٢٩
الأطفال عشراء ٩٥
الوحوش ٣٥٣
أمس واليوم ٢٥٩
الانسان ما هو

(ب)

البصل علاج للسرطان ٢٨٨
البنيسلين أقراص منافعه ٢٠٢

(ت)

تفرع لبناني لمكتبة الجامعة الاميركية ببيروت ٧٣
التخاطب بأشعة ما دون الأحمر ٢٢٩
التربية والتعليم ١٦٣
تنبيهات على قصيدة ٢٩٦

(ج)

جهاز رائد لاسلكي للأجواء ٢٣١
جهاز مسجل للحديث التليفوني ٢٣٥

(ح)

حالة مصر الزراعية ٣٥٣
الحرب والسلم ٢٠٣
الحضارة واختلاف الطبائع ١٩١

وجه

الحق والقوة — الحق يناير ١٩٤٧
الخلافة جهاز لها ٣٠٢

(د)

الديكتافون ٢٩٧

(ر)

رائد لاسلكي للأجواء ٢٣١
الرادار كيف يشتغل ١٧١
الرياضيات في العلوم الطبيعية ١٣٣

(س)

سائل يعجل النمو البدني ٢٣٢
السرطان علاجه والبصل ٢٨٨
السلم الدائم والحلف العام ٢٨٣

(ص)

صحافتنا تنحدر ٤٥
صحتك كيف تحفظها ٢٠١
الصراع في العالم العربي ١٠١

وجه

(ع)

العدسات اللاصقة ٢٦٧
العيش مائة عام ٦٣
عيناك ٢٠١

(غ)

الغبار تنقيته بالكهربا ٣٠١

(ف)

الفكر العربي ١٠

(ق)

قاتل سوس القمح سره ٢٣٣
قنطرة لاستخراج الدم ٢٢٨

قصة

القرية الحزينة ١٩
أم من الجحيم ١١٥
جريمة أم قصاص ٣٢٩
دلائل الخيرات ٦٧
الشيطان — الملاك ٢٧٤
القدر ٢٢١
قصة التاريخ ٥٦
العائدون ٣٢١

قصيدة

الى النيل ٤٤
أنغام باكية ٢٠٢

وجه

برلمان النمل ١٠٠
تنس في الظلام ١١٣
التربية ٢٥٨
تكوين المرت ٢٢٦
الفتاة ٢٨
ثمان ٢١٩
عالم الدين ١٢٠
عاس ٩٢
غروب شمس ٢٨٠
الماضي الخالد ٢٧٣
النار ١٧٦
واحسر حيالك واقعاً
أو مت عنا ٤٨
وقفة على قبر أخي ٢٦٥

(ك)

كالوري ٤٣
الكتاب اللبناني ٢٥٥
الكنوز النفيسة في
القامات الخسيسة ٣٢
كيف نعيش مائة عام ٦٣
كيمياء النواة والنظائر ١٦٧

(ل)

لواحق المقتطف
لحق والقوة بناير
لورد كليف فبراير

وجه

المسرحية بالشعر شوقي
مارس وابريل وماير

(م)

المجمر الكهربي ٣٦٢
المحاكم المختلطة في تاريخ
مصر القديم ١٧
المدرس الدولي ٢٤٣
مدرسة الاسكندرية ٨٣
المرأة في البرلمان ٣٤٩
مطران خليل الشاعر ٢٤٧
« « تكريمه ٢٤٨

مكتبة المقتطف

الآداب السامية ٣٧٤
أعوالك ٣٨١
أعلام الجيش والبحرية
في مصر ٣١٠
أعمدة التلغراف ٨٠
الاقطاع والعيون
في العراق ٨١
أمهات المؤمنين
وأخوات الشهداء ٣٠٦
أوديب — تيسيوس ٨١
أولادنا ٣١١
أؤمن بالانسان ٨١
تاريخ العصر الحاضر ٣٧٥